

مجانا مع القاهرة
الكتاب للجميع
٨١
هدية العدد ٤٥٥ ((١٣ يناير ٢٠٠٩))
ارض البرتقال الحزين
غسان كنفانى

إهـــــــداء ٢٠٠٩
جريدة القاهرة
جمهورية مصر العربية

مجاناً مع جريدة القاهرة

القاهرة

■

رئيس مجلس الإدارة

فاروق عبد السلام

رئيس التحرير

صلاح عيسى

الكتاب للجميع

تصميم الغلاف: محمد الغول

■

جريدة اسبوعية ثقافية عامة

تصدر كل ثلاثاء عن وزارة الثقافة

الادارة والتحرير:

٩ شارع حسن صبري-الزمالك-

القاهرة.جمهورية مصر العربية

هاتف: ٢٧٣٧٣٠٤١

فاكس: ٢٧٣٧٣٠١٨

Email: alqaheranews@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

الاشراف الفني
محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
E-mail:al-madahouse@net.sy
www.almadahouse.com
لبنان - بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com



٨١

غسان كنفاني

أرض البرتقال الحزين

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (القاهرة)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٨

الطبعة الأولى
١٩٧٣

إلى من استشهد في سبيل
أرض البرتقال الحزين...
وإلى من لم يستشهد بعد..

غسان كنفاني

أبعد من الحدود

صعد الرجل الهام الدرجات القليلة إلى بيته، فتح له الباب، ألقى محفظته الجلدية فوق الطاولة، قبل زوجته، نظر إلى طفله النائم في الحرير الأزرق، فك رباط عنقه، ساعده الخادم على خلع حذائه، أخذت زوجته المعطف، علقته على المشجب، فرك يديه مستمتعاً بالدفء..

- أتريد أن تتناول عشاءك الآن؟
- أوْه نعم، أنا جائع جداً..

استدارت زوجته ذاهبة إلى خارج الغرفة، رغرغ الصغير في حريره الأزرق، أصوات الصحون تأتي إليه مخدرة من وراء باب غرفة الطعام، ثم صوت زوجته:

- هل مسكتموه؟
- من؟
- الشاب الذي قفز من النافذة أثناء التحقيق..
- ليس بعد، ولكن أين يريد أن يفر؟ سيكون مآله إلينا بين ساعة وأخرى..
- ماذا كانت جريمته بالضبط؟
- من أين لي أن أدري؟ لقد طلب مقابلتي ثم هرب..

قام عن الكرسي الوثير، انتعل شحاطته ذات الفرو، اجتاز الباب إلى غرفة الطعام، جلس في كرسيه المفضل، قرّب وجهه من صحن الحساء واستمتع بالبخار المتصاعد منه..

- هذا الحساء ساخن جداً، سيحرقني.
- عليك أن تنتظر برهة..
- أنا مرهق جداً اليوم

تراخى في كرسيه وأحس بثقل يتمدد في جفنيه، سمع صوت شباك ينغلق بعنف، زوجته تنسى دائماً شباك الحمام مفتوحاً فتلعب به الريح.. أحس برغبة جامحة في النوم.. كيف استطاع ذلك الشقي أن يثب من الشباك دون أن يؤذي نفسه؟ كلهم شياطين مجرمون..

- "سوف ألقي خطاباً أمامك"

سمع هذه الجمالة بوضوح فحاول أن يرفع رأسه، إلا أنه كان مستمتعاً بالدفء والنعاس، سأل نفسه: تراه من يكون؟

- "الشاب الذي هرب من النافذة، عاد من النافذة يا سيدي!"

ومرة أخرى لم يشأ أن يرفع رأسه رغم أنه أحس بشيء من الرعب.. كان بخار الحساء ما زال يتصاعد فيحمل إلى وجهه نكهة رطوبة دافئة، قال لنفسه "لا شك أنهم أمسكوا ذلك الشاب.. أنا أفكر به الآن لأن حاستي السادسة نامية، أنا أثق بها"..

- لن تقاطعني يا سيدي، أليس كذلك؟ أريد أن ألقي خطاباً"

- " لا، لن أقاطعك"

لم يعد بوسعه، الآن، أن يفتح عينيه ورغم ذلك فهو لم ينم بعد.. إنها اللحظات القليلة العائمة التي تسبق النوم مباشرة، هكذا فكر، إنه يعرف جيداً هذه اللحظات، ويمتصها، نصف واع، حتى الثمالة..

- " اسمح لي يا سيدي أن أرتجف أمامك ريثما يبرد الحساء، أنت لن تمنعني من الارتجاف، أليس كذلك؟ إنه حق ما زال متوفراً لي حتى الآن.. شيء مؤسف ولكنه حقيقة واقعة.. إن رجالك لا يستطيعون أن يمنعوني من ذلك، أعتقد أنهم يرغبون في ذلك.. أليس الارتجاف حركة؟ ولكن كيف يتعين عليهم أن يفعلوا؟ أيعطونني معطفاً؟ كيف، يعطون الخنزير معطفاً؟"

هز رأسه في محاولة عنيفة لإبعاد الصوت الحاد إلا أن الحروف كانت تتكلب في صدغيه كالعلق..

- "لا يا سيدي، لا تحاول أن تستدعي كاتبك ليحمل لك الملف الذي يحتوي على كل التفاصيل الهامة وغير الهامة لحياتي.. تريد أن تعرف شيئاً عني؟ هل يهمك ذلك؟ أحسب على أصابعك إذن: لي أم ماتت تحت أنقاض بيت بناه لها أبي في صفد، أبي يقيم في قطر آخر وليس بوسعي الالتحاق به ولا رؤيته ولا زيارته،

لي أخ، يا سيدي، يتعلم الذل في مدارس الوكالة، لي أخت تزوجت في قطر ثالث وليس بوسعها أن تراني أو ترى والدي، لي أخ آخر، يا سيدي، في مكان ما لم يتيسر لي أن أهتدي إليه بعد.. تريد أن تعرف جريمتي؟ هل يهمك حقاً أن تعرف أم أنت فضولي بريء يا سيدي؟ لقد سكبت دون أن أعي، كل محتويات وعاء الحليب فوق رأس موظف وقلت له إنني لا أريد بيع وطني.. في لحظة جنون أم لحظة عقل، لا أدري .. لقد وضعوني في زنزانة سحيقة العمق لكي أقول إنها لحظة جنون.. ولكنني، في تلك الزنزانة، تيقنت أكثر من أية لحظة مضت بأنها كانت لحظة العقل الوحيدة في حياتي كلها..

هذا صوت أسناني تصطك من شدة البرد يا سيدي، لا تخف أنا لا أحمل سلاحاً إذا كنت تعتقد أن أسناني ليست سلاحاً، إن ساقي عاريتان ممزقتان لأنني قفزت من نافذتك، وقد خطرت لبالي فكرة صغيرة وأنا أمعن في الركض مبتعداً عن غرفتك وحرسك وهي أن هذا الدم الذي سال من ساقيّ قد تفجر من جروح هي أولّ جروحي، وإن ذلك، للعجب، لا يحدث على الحدود. ولا أريد أن أخفي عنك شيئاً، يا سيدي.. لقد بعث ذلك فيَّ شيئاً يشبه الخجل ولكنه كان خجلاً حزيناً بائساً ما لبث أن صار دمعاً..ويبدو أن ذلك الخجل هو الذي دفعني لأعود إليك من النافذة، أم تراني عدت لأن كلماتك الأخيرة، التي سمعتها وأنا أثب من النافذة وكانت آخر ما سمعت منك، ما تزال تنخر في رأسي كالمثقب: كلمة ناشفة انهمرت ورائي وأنا أقفز: "الخنزير.. امسكوه"!

يا سيدي، أنا إذن خنزير حقير.. أتسمح لي أن أكونه؟

أنا لست أشعر ذلك إذا أردت الصدق.. ولكن لو قلت الصدق هذا، بصوت أعلى، إذن لزجوا بي في السجن. وإذا أغلقوا وراء ظهري المزلاج فمن يستطيع أن يفتحه؟ أنت؟ ولا حتى من هو أعلى منك قيمة ومركزاً.! أتعرف لماذا يا سيدي؟ لأنني، في الواقع، لست إلا تجارة من نوع نادر، فأنت ستسأل نفسك إذا قدر لك أن تسمع بالخبر: ".. وماذا سأستفيد من إطلاقه؟" والجواب بكل بساطة: "لا شيء!" فأنا لست صوتاً انتخابياً، وأنا لست مواطناً، بأي شكل من الأشكال، وأنا لست منحدراً من صلب دولة تسأل بين الفينة والأخرى عن أخبار رعاياها.. وأنا ممنوع من حق الاحتجاج، ومن حق الصراخ فماذا ستربح؟ لا شيء.. وماذا ستخسر إذا بقيت أنا وراء المزلاج؟ لا شيء أيضاً! إذن لماذا التفكير الطويل؟ "خذ هذه الأوراق يا ولد

ولا تزعجني بمثلها مرة أخرى!" أرأيت؟ مشكلة لا أبسط ولا أسهل!

لقد فكرت في الأمر مطولاً في المدة الأخيرة يا سيدي.. أنت تعرف، لا بد، أن الواحد منا ما زال يستطيع أن يفكر بين الفينة والأخرى.. لقد كنت ماشياً في الشارع وفجأة سقطت الفكرة في رأسي كلوح زجاج كبير ما لبث أن تكسّر وأحسست بشظاياه تتناثر في جسدي من الداخل.. قلت لنفسي: " أوف.. ثم ماذا؟" وأنت ترى، إنه مجرد سؤال صغير، يمكن للمرء أن يطرحه ولو بعد خمس عشرة سنة.. ولكن العجيب هذه المرة أن السؤال كان صلباً وناشفاً وأكاد أقول نهائياً.. إذ أنه، فور أن سقط في رأسي، انفتح خندق مظلم طويل بلا نهاية.. وقلت لنفسي: " لا بد أن أكون موجوداً رغم كل شيء.. لقد حاولوا أن يذوبوني كقطعة سكر في فنجان شاي ساخن.. وبذلوا.. ، يشهد الله، جهداً عجيباً من أجل ذلك.. ولكنني ما أزال موجوداً رغم كل شيء.." إلا أن السؤال كان ما يزال يعوي: "ثم ماذا؟" هذا النوع من الأسئلة يا سيدي عجيب للغاية، ذلك أنه إذا ما أتى لن يكون بوسعه أن يبرح قبل أن يروي ظمأه تماماً!

نعم، ثم ماذا؟ دعني أقول همساً: يبدو أن ليس ثمة "ثم ماذا" أبداً. دعني أقول ذلك، ثم قولوا عني إنني يائس جبان هارب.. قولوا عني حتى إنني خائن! ليس بوسعي أن أكتم الجواب أكثر.. إن الحقيقة يا سيدي مروعة، وهي تملؤني بغزارة حتى لأحس بأنني، ذات يوم، قد أنفجر من فرط ما عبأتني.. أتسمع يا سيدي؟ ليس ثمة "ثم ماذا" على الإطلاق.. وتبدو لي حياتي، حياتنا كلنا، خطاً مستقيماً يسير بهدوء وذلة إلى جانب خط قضيتي.. ولكن الخطين متوازيان، ولن يلتقيا..

يا سيدي!

إن كنت أنا قد جمعت طوال فترة قاسية شجاعة خارقة لأقرر هذه الحقيقة، فإن الشرف كله ليس لي، أنا لي شرف القول فقط وأنتم تحتفظون بكل شرف التأليف.. ألست ترى أنكم أنتم الذين أعددتموني ساعة إثر ساعة ويوماً إثر يوم وعاماً إثر عام لهذه النتيجة؟

لقد حاولتم تذويبي يا سيدي؟ حاولتم ذلك بجهد متواصل لا يكل ولا يمل يا سيدي. هل أكون مغروراً فأقول بأنكم لم تفلحوا؟ بلى! أفلحتم إلى حد بعيد وخارق، ألست ترى أنكم استطعتم نقلي، بقدرة قادرة، من إنسان إلى حالة؟ أنا إذن حالة.. لست أعلى من ذلك قط، وقد أكون أدنى.. ولأنني حالة، لأننا حالة، فنحن نستوي

بشكل مذهل! إنه عمل رائع يا سيدي، عمل رائع جداً رغم أنه احتاج إلى فترة طويلة، ولكن يا سيدي، إن تذويب مليون إنسان معاً، ثم جعلهم شيئاً واحداً متوحداً ليس عملاً سهلاً، ولذلك أعتقد أنك تسمح له إن احتاج ذلك الوقت الطويل.. لقد أفقدتم أولئك المليون صفاتهم الفردية المميزة.. ولستم في حاجة، الآن، إلى تمييز وتصنيف، أنتم الآن أمام حالة.. فإذا خطر لكم أن تسموها لصوصية، فإنهم لصوص.. خيانة؟ كلهم، إذن خونة! فلماذا الإرهاق والتعب والنظرات البشرية المعقدة؟

سيدي.. لا تتعجل على فهمي البطيء، أنا أريد أن أقول أيضاً إنهم من ناحية أخرى، "حالة تجارية".. إنهم، أولاً، قيمة سياحية، فكل زائر يجب أن يذهب إلى المخيمات، وعلى اللاجئين أن يقفوا بالصف وأن يطلوا وجوههم بكل الأسى الممكن، زيادة عن الأصل، فيمر عليهم السائح ويلتقط الصور، ويحزن قليلاً.. ثم يذهب إلى بلده ويقول: "زوروا مخيمات الفلسطينيين قبل أن ينقرضوا" ثم إنهم، ثانياً، قيمة زعامية، فهم مادة الخطابات الوطنية واللفتات الإنسانية والمزايدات الشعبية.. وأنت ترى، يا سيدي، لقد أصبحوا مؤسسة من مؤسسات الحياة السياسية التي تدر الربح يميناً ويساراً!

سيدي، ليس هناك أي "ثم"! هذه حقيقة مروعة، ولكنها حقيقة على أية حال.. لقد تقولب دوري في الحياة بشكل حاسم، أنا كفرد، مجرد خنزير، وأنا، كجماعة، حالة ذات قيمة تجارية وسياحية وزعامية.. لقد فكرت طويلاً قبل أن أصرح بهذا الاكتشاف، وأنا أعرف بأن المنابر ستمتلئ بمن يقول: هذا خائن جبان متخاذل هارب، لا بأس، لن ينالني العار أكثر مما نالني، وبعد خمسة عشر عاماً لا بأس أن تكونوا كلكم زعماء الإخلاص ورجال المعركة والأبطال الصناديد الذين لا ييأسون ولا يهربون..

سيدي! إن مؤسستنا تقدم خدمات أخرى لا يحصيها العد... نحن مثلاً أكثر جماعة ملائمة من أجل أن تكون مادة درس للبقية.. الأحوال السياسية مستعصية صعبة؟ إذن، اضرب المخيمات! اسجن بعض اللاجئين، بل كلهم إن استطعت! أعط مواطنيك درساً قاسياً دون أن تؤذيهم.. ولماذا تؤذيهم إذا كان لديك جماعة مخصصة تستطيع أن تجري تجاربك في ساحاتها؟ أريد أن ألفت نظرك يا سيدي إلى أمور كثيرة أخرى، أنت تستطيع أن تؤكد ولاء مواطنيك عن طريق الإدعاء بان المتذمرين

إنما هم بعض الفلسطينيين، وإذا فشل مشروع من مشاريعك فقل إن الفلسطينيين سبب ذلك الفشل، كيف؟ إنه أمر لا يحتاج إلى تفكير طويل، قل إنهم مروا من هناك مثلاً.. أو إنهم رغبوا في المشاركة.. أو أي شيء آخر، إذ ما من أحد سينبري لمحاسبتك.. ولماذا ينبري؟ من يملك، بعد خمسة عشر عاماً، جرأة التطويح بنفسه في القضاء دون هدف؟

يا سيدي، أنت ترى، نحن رحمة أحياناً.. أنت تستطيع أن تشنق واحداً منا فتربي بجسده الميت ألفاً من الناس دون أن تحمل هماً أو خوفاً أو تأنيب ضمير.. إلا أننا يا سيدي، نقمة في كثير من الأحيان، نحن لصوص، نحن خونة، نحن بعنا أرضنا للعدو.. ونحن طماعون، طماعون نريد أن نمتص كل شيء هنا، حتى التراب..

هذا هو الدور الذي رسم لنا.. وعلينا أن نقوم به شئنا أم أبينا.. ولكن، يا سيدي، هنالك مشكلة بسيطة تؤرقني وأشعر أن لا بد لي من قولها.. إن كثيراً من الناس، إذا ما شعر أنه يشغل حيزاً في المكان، يبدأ بالتساؤل، "ثم ماذا؟" وأبشع ما في الأمر أنه لو اكتشف بأن ليس له حق "ثم" أبداً.. يصاب بشيء يشبه الجنون، فيقول لنفسه بصوت منخفض: "أية حياة هذه!. الموت أفضل منها" ثم، مع الأيام يبدأ بالصراخ: "أية حياة هذه!. الموت أفضل منها" والصراخ، يا سيدي عدوى، فإذا الجميع يصرخ دفعة واحدة: "أية حياة هذه!. الموت أفضل منها" ولأن الناس عادة لا يحبون الموت كثيراً فلا بد أن يفكروا بأمر آخر.

سيدي..

أخشى أن يكون حساؤك قد برد فاسمح لي أن أنصرف!"

١٩٦٢

الأفق وراء البوابة

-١-

قبل أن يصل إلى رأس السلم وقف ليلتقط أنفاسه.. لا، لا يمكن أن يكون مرهقا إلى هذا الحد.. إنه يعرف جيداً أنه ليس مرهقاً أبداً.. لقد أنزلته السيارة على باب الفندق، ثم إنه لا يحمل سوى سلة صغيرة والسلم لم يكن طويلاً كما تصور..

ولكن هذه الدرجات الثلاث الأخيرة هي التي تحطمه دائماً وتذوّب ركبتيه وتهدم إصراره..

وضع السلة على السلم واتكأ بكتفه إلى الحائط.. هل يعود أدراجه؟ بدا له السؤال عجيباً ولكنه لم يستطع أن يتخلص منه، كان يدق في رأسه كالناقوس.. هل أعود ؟ وفي دوامة التردد التي أخذت تطوّف في عروقه تذكر فجأة أنه كان قد وقف نفس هذه الوقفة قبل عامين وسأل نفسه ذات السؤال، وبعد لحظة واحدة كرّ عائداً إلى السيارة، ثم غادر القدس.. هل يعود أدراجه الآن مرة أخرى؟ مدّ كفه إلى السلة فقبض على ذراعها بعنف واندفع إلى فوق كأنه يقتلع نفسه اقتلاعاً من بحيرة طين..

لا! هذه المرة لن أعود! إنه من العار أن أكون جباناً إلى هذا الحد.. لقد حملت على كتفيّ قدراً قميئاً ثقيلاً طيلة عشر سنوات طويلة.. وعليّ الآن أن أغسله في ظل بوابة مندلبوم، التي ترتفع فاصلاً من حجارة بين الأرض المحتلة والأرض الباقية..

لا، هذه المرة لن أعود.. يجب أن أضع حداً للكذب الطويل الذي مارسته مختاراً أو مرغماً، لست أدري، طوال عشر سنوات..

حين وصل قبل عامين إلى القدس كان قد عقد عزمه على أن يقابل أمه ويقول لها كل شيء.. ولكنه في لحظة وقوفه على سلم الفندق شعر أنه لن يستطيع أن يمسح الكذب الطويل الذي ساقه على أمه عندما كان يراسل الإذاعة قائلاً: "أنا ودلال

بخير، طمنونا عنكم.." لقد نمت الكذبة طيلة هذه السنوات العشر نمواً فظاً حتى انه لم يجد مبرراً ليقول هذه الحقيقة مرة واحدة حاسمة وقاسية وربما قاتلة أيضاً.. ولذلك فضل يومها أن يكف عن صعود السلم، وكرّ عائداً إلى السيارة.. وما من شك في أن أمه قد قضت طيلة ذلك الصباح واقفة في حلق البوابة تتطاول بعنقها باحثة بين الجموع. وما من شك في أنها أصيبت بخيبة أمل مريرة وفاجعة.. ولكن ذلك كله يبقى أسهل بكثير من أن يقف أمامها، هناك، بعد عشر سنوات، ليقول لها الحقيقة القاتلة..

استلقى في سريره وصالب ذراعيه تحت رأسه.. كانت العتمة قد بدأت تبسط كفها فوق المدينة النائمة ولم يكن ثمة في الغرفة إلا فكرة واحدة حاسمة: لا بد من الذهاب غداً إلى مندلبوم.!

وغداً سوف تلوّح له بكفها المعروقة وسوف تندفع إليه بشعرها الأشيب ووجهها العجوز المبتل بالدموع، سوف تنهمر فوق صدره وترجف كما يرجف طير صغير على وشك أن يموت، سوف تمرغ رأسها المكدود على وجهه دون أن تجد الكلمة التي تستطيع أن تشحنها بحبها المخذول فماذا عساه يقول لها وهي تخفق فوق صدره كالقلب الذي يخفق في صدره؟ من أين يتوجب عليه أن يبدأ؟

تقلب في فراشه وخيل إليه أنه يسمع وجيب قلبه يضرب في جسده كله كالوتر المشدود، سوف يبدأ من البدء، منذ أن غادر يافا إلى عكا ليرى الفتاة التي كانت أمه تزمع أن تخطبها له: إنه يذكر تلك اللحظة بكل دقائقها، كيف وقفت أمه على السلم تدعو له بالخير والتوفيق، وكانت خالته تقف إلى جانبها تشير له مطمئنة، هو يعرف أنها ستلازمها طيلة فترة غيابه، وكان يشد على ذراع أخته دلال التي رغبت في مرافقته، فتاة غضة في العاشرة من عمرها تغادر الدار مع أخيها لأول مرة في حياتها.

ولكن الأمور جرت على غير ما اشتهى وغير ما اشتهت فبعد أن غادر يافا بأيام قليلة انقطع الطريق واستحالت العودة، لقد عانى كثيراً من القلق في تلك الأيام السوداء التي أمضاها بعيداً عن أمه، ليس بسببه هو ولكن بسبب دلال التي تعني لأمه كل شيء في البيت، هي التي تعطي المرأة العجوز نكهة الحياة حين يكون الموت في الجوار، وهي التي تعني الحياة كلها حين تعني الأشياء كلها الموت.

لا.. هذا القسم من القصة لم يهم أمه بأية حالة، إنها تريد بلا شك أن تعرف

أموراً أكثر غموضاً من هذا الجزء من القصة.

ومرة أخرى تقلب في فراشه محتاراً، كانت الغرفة تنوس بضوء شاحب مريض، وكانت السلة الصغيرة تتكئ على الجدار مثل شيء حي، لماذا لا يبدأ بالقصة من نهايتها؟ لماذا لا يحكي لها كيف دخل اليهود عكا وكيف جرت الأمور بعد ذلك؟

كان في الغرفة حين تفجرت جهنم في وجهه.. ارتد مع من ارتد حين بدأ الظلام يطوي عكا، قاءت بندقيته القصيرة كل ما في جوفها ثم تحولت إلى عصا، مجرد عصا ناشفة لا تصلح لشيء، ذهب إلى غرفته وعانق دلال، كانت تبكي في ظل الرعب الذي خيّم فوق المدينة، وقبل أن يعي، كانت الأكتاف قد انهدت فوق الباب، وانفتح رشاش ثرثار فزرع في الغرفة رصاصاً كالمطر، ثم انكشف الدخان عن أربعة رجال يسدون أمام عينيه باب الغرفة الخشبي، ولكنه لم يتحرك، كانت دلال ترتعش في دمها بالخفقات الأخيرة من أنفاسها، وعندما شدها إلى صدره كأنه يريد أن يسكب فيها قلبه ودمه، حدّقت إليه ثم رفعت حاجبيها لتقول شيئاً ولكن الموت سد الطريق أمام الكلمة.

هل بكى؟ إنه لا يذكر شيئاً الآن، كل الذي يذكره أنه حمل أخته القتيل بين ذراعيه وانطلق إلى الطريق يرفعها أمام عيون المارة ليستجدي دموعهم كما لو أن دموعه وحدها لا تكفي، ليس يدري متى تيسر للناس أن ينتزعوا الجسد الميت من بين ذراعيه، ولكنه يعرف أنه حين فقد أخته الميتة، حين ضيع جسدها البارد المتصلب، أحسّ بأنه فقد كل شيء: أرضه وأهله وأمله، ولم يعد يهمه أن يفقد حياته ذاتها، ومن هنا مضى يضرب في الجبال، تاركاً أرضه، هارباً من القدر الذي لاحقه كالسوط.

لو قال ذلك كله لامّحت الأكذوبة الكبرى التي بناها في عشر سنوات، ستصير أمه في تلك اللحظة تعرف أن دلال قد ماتت، منذ عشر سنوات وان ابنها قد كذب عليها طويلاً حين دأب على تكرار تلك الجملة الباردة عبر أسلاك الإذاعة: "أنا ودلال بخير طمنونا عنكم".

نهض إلى النافذة ففتح الستائر القاتمة وأخذ يحدق إلى الطريق.. يجب أن يحررها من الكذبة ويحرر نفسه من القدر الأسود الذي حمله وحيداً، يجب أن يقول لها إن دلال مدفونة هناك، وإن قبرها الصغير لا يجد من يضع عليه باقة زهر في كل عيد، وإن، أمها، على بعد أشبار من قبر عزيز لا يتيسر لها أن تزوره.

-٢-

كان اللقاء في ظل البوابة الكبيرة باكراً صباح اليوم التالي، لم ير علي أمه فيما كان يتفرس بالوجوه، خالته فقط كانت هناك، لم يعرفها بادئ الأمر، لكنها عرفته واستطاعت أن تدله على مكانها بين الجموع، وفي غمرة اللقاء سألته السؤال الذي أتى خصيصاً ليجيب عليه:

- أين دلال؟

وفي العينين الصغيرتين المترقبتين ذاب كل الإصرار الذي حمله معه، كأن قوة خفية تمسكت بحلقه وأخذت تهزه بلا هوادة:

- ولكنك لم تقولي لي أين أمي؟

وتلاقت العيون مرة أخرى، نقل عليّ السلة من يد إلى أخرى وحاول أن يقول شيئاً، ولكن حلقه كان مسدوداً بغصة عريضة كأنها نصل معقوف، مدت خالته يدها فوضعتها فوق ذراعه، وأتاه صوتها مشحوناً بأسى لا يصدق:

- أين دلال؟

- دلال؟

ومرة أخرى أحس بالضعف يأكل ركبتيه وبدا كأنه يدفع عن نفسه إحساساً بالإغماء، رفع يده ومد السلّة باتجاه خالته:

- خذي هذه السلة لأمي، فيها بعض اللوز الأخضر..

ولم يستطع أن يكمل، كانت نظرة فاجعة قد انسكبت من عينيّ المرأة العجوز، وبدأت شفتها ترتجف، نظر وراء كتفها وأكمل بوهن:

- .. كانت تحبه.

وفي فترة الصمت الواسعة التي انفتحت بينهما كالقبر أحس برغبة هائلة تدفع به إلى الفرار وكانت خالته تدوّر أصابعها في الحقيبة الصغيرة التي وضعت فيها رداء دلال الأخضر، كان إحساس مباشر يصل بين صدريهما، هي واقفة هناك تأتلق عيناها بدمع صامت وهو يحس النصل اللامع يجرح حلقه، مد يده ورفع إليه وجهها ثم انتشل نفسه بسؤال خافت:

- كيف تركت يافا؟

حاولت خالته أن تقول شيئاً ولكنها لم تستطع، تزاحمت سيول من الكلمات في

حنجرتها فسكتت وابتسمت ابتسامة باهتة لا معنى لها، ثم مدت يدها الراجفة تمسح على كتفه بحنو كسيح فيما أخذ هو ينظر بهدوء إلى الأفق الذي يقع خلف بوابة مندلبوم.

الكويت -١٩٥٨

السلام المحرم

-١-

بدأت القصة كما يلي: كان أبو علي عائداً إلى داره، لقد أقفل دكانه قبل المغيب بسبب توعكه وأراد أن يذهب إلى البيت فيستريح على الكرسي الصغير أمام الباب قبل أن يتناول عشاءه ويأوي إلى الفراش، ليس يدري سبباً لتلك الوعكة، ربما كان الغداء الذي حمله معه في الصباح بعد أن وضعته أم علي في طاسة نحاسية كبيرة قد فسد، لأنه من طبخ أمس، ربما كان الطقس الذي يتباين بين ساعة وأخرى هو السبب، وعلى أي حال فضل أبو علي أن لا يبقى في الدكان، وإذا كان لا بد من حدوث أي حادث، لا سمح الله، فليكن إذن بين الأهل، بين ذراعي أم علي، وعلى مرأى من علي.

هذا هو السبب الذي جعله يمر بساحة القرية في ذلك الوقت بالذات، ولو لم يصبه التوعك إذن لما كان مر من هناك، وإذن لما حدثت القصة كلها..

على بعد خطوات منه في الطرف الآخر للساحة المبلطة، كان بعض شباب القرية ورجالها يلتفون حول شيء ما بصورة دائرية ملتحمة، لقد حاول أبو علي أن يخمن الحقيقة من مكانه، إلا أنه لم يفلح، لو كان الأمر عادياً إذن لما وقف عبد الله إلى جانب فاروق، فإنهما يكرهان بعضهما كراهية مقيمة، لا بد إذن أن يكون الأمر خطيراً، وهنا أيضاً، لو لم يسيطر عليه الفضول، لما حدثت القصة كلها، ولكنه غير اتجاهه وسار، رغم توعكه، إلى حلقة الرجال يستطلع الخبر، وقبل أن يصل إليها تماماً شاهد، من بين الأكتاف المتمايلة، سيارة جيب يقف إلى جانبها جندي أجنبي بلباس الميدان الكامل معلقاً على كتفه بندقية جديدة.

وتذكر أن هذا الجندي كان قد أتى مراراً إلى القرية بغية أن يقيم فيها، إلا أن أهل القرية كانوا يرفضونه دائماً، ليس لشيء آخر إلا لأنه كان يحمل معه سلاحه، وكان أهل القرية يقولون إن السلاح بيد الإنسان إغراء للقتل، ومن الذي يستطيع أن

يضمن هذا الجندي فلا يطلق الرصاص ذات يوم على الناس إذا ما داعبه غرور التفوق والمقدرة؟ الرصاص يجب أن لا يطلق على الناس، الرصاص يجب أن يطلق على الضباع، كانت هذه هي الفكرة التي قادته إلى الحلقة، وفي تلك اللحظة بالذات فهم كل شيء، ورغم ذلك، فقد بادر أقرب الناس إليه بالسؤال كأنه يريد أن يبرر انضمامه إلى الحلقة:

– ماذا يحدث هنا؟

قال الرجل الواقف إلى جانبه:

– لقد ذهب الضابط إلى بيت المختار وبقي الجندي واقفاً هنا.

– – إذن لقد حضر الضابط معه؟

– نعم، ذهب يتحدث إلى المختار.. عله يقبل هذه المرة..

– وأنتم؟

– الرجال يريدون خطف بندقيته.

اندس في الصف الرابع فوسع له الرجال موطئ قدميه، إلا أنه خطا إلى الأمام ودافع الرجال بكتفيه وكفيه حتى صارفي الصف الأمامي، وصار الجندي أمامه مباشرة على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار، ومن مكانه ذاك استطاع أن يقيس البندقية إنها من طراز حديث، مشطها يتسع لثماني طلقات، وتبدو جديدة لا مجروحة ولا صدئة، وقال في نفسه إن ثمنها لا بد وأن يكون فوق المئة جنيه.

قال للرجل الواقف إلى جانبه:

– من الذي يريد خطفها؟

لم يقرر أحد بعد، انظر إلى عينيه الزرقاوين كيف تغزلان، إنه ملعون حذر ككلب الصيد.

فكر أبو علي قليلاً ثم قر قراره فجأة. لقد هبط العزم هبوطاً داوياً في رأسه فنسي وعكته وتذكر شيئاً واحداً فحسب، هو أن هذا الجندي المسلح يجب أن لا يبقى هنا، وإذا ما خطفت البندقية منه، فلا بأس أن يبقى، لأنه، عند ذاك، لن يختلف عن البقية ولن يكون ذا ضرر قط.. إذن، يجب أن تخطف البندقية، لقد كان القرار نهائياً..

ولكن الأمر لم يكن سهلاً، صحيح أن السكين الطويلة غير مثبتة في ماسورة البندقية إلا أنها تتأرجح هناك على حزام الجندي وإذا أراد أن يصل إليها فإنه لا يحتاج إلى وقت طويل، ثم إن الضابط قد يرجع بين لحظة وأخرى.. ولذلك

فالقضية ليست قضية لعب.. وإذا أراد المرء أن يقوم بعمل ما فيجب أن يحسب للأمور حسابها من كل الزوايا.

وقبل أن يسوي أبو علي الأمور في رأسه، قرر أن يستشير الجماعة، فصاح بأعلى صوته كي يسمعه كل الرجال:

– يا شباب من الذي سيتقدم..؟

إلا أن أحداً لم يجب، وكل الذي حدث هو أن جميع العيون صوبت إليه، بما فيها تلك العينان الزرقاوان للجندي الواقف في وسط الدائرة.. كان خائفاً لأنه كان يعرف أن أية حماقة قد تسبب له نهاية عاجلة على أيدي أولئك الرجال الملتفين حوله كالأسورة.

صاح أبو علي مرة أخرى:

– سآخذها أنا يا شباب.

وأتاه صوت من طرف الحلقة المقابلة:

– أنت سيدها يا أبا علي.

كرر بصوت أعلى كأنما ليبعث الحماس في نفسه:

– سأخطفها منه..

قال نفس الصوت:

– إنها حلالك..

صاح مؤكداً:

– إنها حلالي، سآخذها..

وفكر قليلاً، ثم نظر حواليه وقال بصوت خفيض:

– حين تصير البندقية في يدي وسعوا لي طريق الهرب، وإذا حاول أن يلحق بي سدوا الطريق بوجهه.

– معقول يا أبا علي، اعتمد علينا.

– سأعتمد عليكم..

ثم قال في نفسه: "والآن إلى العمل"، وحين نظر إلى الجندي وجده يحدق به، وكانت لحظة خوف واحدة ما لبثت أن عبرت بسرعة: انحنى وخلع نعليه ثم سلمهما إلى رجل كان يقف إلى جانبه دون أن يقول له حرفاً واحداً، لقد بدأ الجد الآن، والنعل لا شغل له إلا عرقلة الركض حين يكون الركض في أوجه، شال الكوفية والعقال عن

رأسه ثم أسقط العقال في عنقه وربط الكوفية تحت خاصرتيه، وانحنى فرفع طرف ردائه وثبته تحت الحزام في وسطه، ذلك حري بأن يعطي اتساعاً لمدى ساقيه حين يبدأ العدو، أما السروال الأبيض الطويل الضيق عند رسغي الساقين فإنه لن يعيق شيئاً.

على بعد ثلاثة أمتار أو أربعة أمتار كان الجندي الواقف مع بندقيته قد فهم كل ما يجري، إلا أنه بقي يحدق، دون أن يقدر على عمل أيما شيء.. وكان أبو علي يعرف بأنه لن يستعمل سلاحه الذي، ربما لم يكن محشواً أيضاً.. لقد كان واقفاً هناك بشكل لا يحسد عليه أبداً.. غير قادر على اكتشاف ماذا يتعين عليه أن يفعل مكتفياً بالنظر إلى أبي علي وهو يقوم بإعداد العدة على أكمل وجه، وحين شبك أبو علي طرف قنبازه إلى وسطه رفع الجندي بندقيته عن كتفه، وثبت كتفها على الأرض، أمامه مباشرة، ثم لف حزامها الجلدي الخشن حول ساقه لفتين محكمتين، وصفق كعبي حذائه الضخم ببعضهما متفرغاً لمراقبة أبي علي من جديد.

قال أبو علي للرجل الواقف إلى جانبه والذي كان قد وضع النعلين تحت إبطيه وشبك أصابعه وراء ظهره:

– لقد أفسد الأمور هذا النحس، انظر ماذا فعل! الملعون يريدني أن أخطفه مع البندقية!.

– قال الرجل بهدوء:

– فكها من حول ساقه..

– كيف؟

– اطرحه أرضاً..

إلا أن أبا علي لم يعد بوسعه أن يغير رأيه، لقد قطع نصف الطريق تقريباً، ومن العار الآن أن يفك طرف قنبازه عن وسطه ويستعيد نعليه، وكان الجندي ما زال يحدق إليه وشفتاه ترتجفان والخوذة تلمع فوق رأسه المحروق..

فرش أبو علي ذراعيه على وسعهما ودفع الرجال الواقفين حواليه إلى الوراء خطوة، ثم اندفع بخطوات ثابتة إلى وسط الساحة، كان الجندي قد أدرك أن المعركة قد بدأت فشد كفيه على ماسورة البندقية وأدناها من صدره دون أن ينزع بصره عن وجه أبي علي الذي صار أمامه مباشرة، على بعد خطوة واحدة فحسب، وقف، ونظر إليه مباشرة في عينيه وخيل إليه أن صوتاً باهتاً قد رجف وراء ظهره صائحاً:

– آه يا أبا علي يا سيد الرجال!

مد ذراعيه: صلبتين مستقيمتين، وشدّ كفيه حول ماسورة البندقية فوق كفي الجندي ثم جذب جذبتين خفيفتين ليقيس قوة الجندي، وحين لمس تشبثه بسلاحه شد بعنف، إلا أن الجندي قاوم الشد بأن قرب البندقية إلى صدره وقد تصلب جسده أكثر فأكثر واحمر وجهه، وحين شد أبو علي بكل قوته انزلق حذاء الجندي على بلاط الساحة ووقع على ظهره، وبسرعة شديدة دور أبو علي البندقية دورتين فانفك حزامها عن الساقين الملوحتين في الهواء، وتلقف البندقية بكفيه الكبيرتين الخشنتين، وبسطها أمام صدره محدقاً إليها بجذل، ثم صاح بصوت عال:

- وسعوا الطريق يا شباب!

ومن خلال الفرجة الضيقة التي انفتحت في المكان الذي كان يقف فيه انسرب أبو علي بخفة ورشاقة، ثم انغلقت الفرجة بأكتاف الرجال من جديد، فيما كان أبو علي يطوي الأزقة الموحلة متجهاً إلى داره.

-٢-

ولكن أبا علي لم يصل إلى داره.

أخباره وأخبار البندقية ضاعت، ولو كان أبو علي رجلاً عادياً والحادث حادثاً عادياً إذن لما اهتم أحد قط، ولكن الموضوع هو أن أبا علي ليس رجلاً عادياً، فبيته مترع بزوجه وأولاده، وهو رب عائلة مستقيم، ليس ذلك فحسب، بل إن بيت أبي علي هو البيت الأول في القرية، إنه يقع على الحافة الغربية، فوق تلة مزروعة بالزيتون، ولقد كان هناك، منذ وعى الناس هناك، قبل أن يولد أبو علي نفسه، بل قبل أن يولد جده، ولقد توارثوه واحداً عقب الآخر بصمت وانتظام، وارثين معه كل تلك الواجبات التي التصقت بالبيت منذ أن وعى الناس البيت.

كان بيت أبي علي باب القرية وحدّها الغربي، وفي الأحراش الممتدة تحت تل الزيتون كانت تكثر الضباع التي كانت تزحف إلى القرية إذا ما اشتد البرد في حمأ الشتاء بحثاً عن الطعام وربما الدفء، وكان بيت أبي علي قد حمل- دون أن يكلف من قبل أي إنسان- مهمة صد الضباع في كل شتاء ذلك لأنه الحد الفاصل بين الأحراش وبين القرية وقد سلم سكّان القرية بذلك لأنهم لا يعون متى لم تكن الأمور كذلك..

والآن تأتي قصة البندقية من جديد، لقد ارتاح الناس لتلك الصدفة التي جعلت

من أبي علي صاحب بندقية جديدة، لقد آن الأوان لأبي علي أن يمتلك بندقية يستعيض بها عن الفأس الذي كان يستعمله في محاربة الضباع كل شتاء، فالشتاء الآن صار على الأبواب، ولابد لأبي علي أن يمتلك تلك البندقية.

ولكن الأمور لم تسر كما اشتهوا واشتهى، فبعد يومين من الحادث تمكن بعض الضباع من الوصول إلى البيت والتحويم حوله طوال الليل، وفي لمحة خاطفة تغير كل شيء.

أم علي خافت على أولادها فأرسلتهم إلى القرية ليكونوا بعيدين عن ذلك الرعب وبقيت هناك تنتحب على زوجها وعلى مصيرها، وكانت الضباع تتكاثر ليلة بعد ليلة محوّمة حول البيت مرسلة عواءها الحاد في صمت القرية، باعثة فيها الرعب..

على أن لغز أبي علي لم يكن أقل وطأة، وكانت الأحاديث كلها ،- في الدواوين المغلقة وفي بيت المختار- تدور حول أبي علي: أين ذهب؟ ماذا حدث له؟ تراه ذهب إلى قرية أخرى فباع بندقيته وتزوج امرأة أخرى؟ أم تراه قتل ودفن دون أن يعرف الناس؟

بقيت الأسئلة تدور في أجواء المدينة بلا كلل ولا توقف، حتى إن الأمور الأخرى كلها ضاعت في حمأ الشك والتساؤل، لم يعد أحد يهتم بموضوع البيت أو عائلة أبي علي التي توزعت أزقة المدينة، وحين ذهب علي إلى بيت المختار يسأله النصح وجد القاعة مليئة بالرجال الذين كانوا يتصايحون ويناقشون قصة أبي علي بكل دقائقها، وعبثاً حاول أن يصل إلى المختار، لقد كان الرجال يسدون عليه طريقه كلما خطا خطوت، وأخيراً لم يجد بداً من أن يعود أدراجه إلى الطريق.

-٣-

ضم أبو علي البندقية إلى صدره وأخذ يعدو في الأزقة الموحلة متجهاً إلى داره. كان العرق قد بلل ظهره وصدره وكان يحسه يصفعهما بالبرودة كلما اصطفق الهواء بينهما وبين ثيابه، إلا أن ذلك لم يقلل من عزمه على المضي بها إلى البيت، كانت ثقيلة، وكان يحس ثقلها يزداد بين ذراعيه كلما دار حول منعطف أو عبر قنطرة، وحين بدأ صدره يخفق بسعال مجروح عميق تذكر انه مريض وأنه أغلق دكانه مبكراً كي يستريح من عناء وعكته، ولكنه حين أحس الثمن بين ذراعيه: بندقية

جديدة ذات مشط يتسع لثماني طلقات، تبسم برضا ، وتذكر تلك الليالي الباردة الصامتة التي كان يقضيها جالساً وراء الشباك محدقاً في الظلمة كالقط، حتى إذا ما شاهد شبح الضبع أو شم رائحته الكريهة قام إليه خفيفاً محني الظهر وقد تصلبت كفاه على ذراع الفأس، من الباب الخلفي، فيصير الضبع محصوراً في الحديقة الصغيرة غير المزروعة إلا بكوخ صغير لإيواء الدجاج، ثم يقع العراك، لحظة أو لحظتان وتخرج أم علي لتسحب جثة الحيوان الكريه وتقذفه من أعلى التل إلى الغابة مرة أخرى.. لا، لن يحدث ذلك مرة أخرى الآن، من النافذة الخشبية سيطلق رصاصة واحدة حين يبدو الشبح المخيف، ولن نخاف الخروج إلى الحديقة الجرداء حين تتكاثر الضباع، كما حدث في الشتاء الماضي، لا! ها هي ذي بندقية يتسع مشطها لثماني طلقات.. ضمها إلى صدره بحنو دون أن يكف عن الركض بكل ما في وسع ساقيه أن تنفرجا ، ورغم لهاثه وسعاله فقد كان يسمع صوت حذاء الجندي الضخم يخفق وراءه غير بعيد، متجاوبة أصداؤه الثقيلة بين جدران الطين الحانية على بعضها فوق رأسه، وفجأة اعترض طريقه شبحان فوقف، وكان صفير لهاثه المبحوح يرتفع وينخفض بانتظام..

- هاتها؟!

قال أحد الرجلين بصوت جاف ومدّ ذراعيه باسطاً كفه على وسعها كما لو أنه كان يتوقع أن يضع أبو علي البندقية فيها.. إلا أن أبا علي أرجع البندقية إلى جنبه ووضع كتفه الأخرى في الطريق بينها وبين كف الرجل المبسوطة.. ومنعه لهاثه من الكلام، بينما كرر الرجل بجفاف:

- هاتها.. ألا تسمع؟

بلع أبو علي ريقه وقال بصوت واهن:

- إنها حلالي..

- لقد رأيناك تسرقها.. هاتها..

- إنها حلالي.

- هاتها..

رجع أبو علي إلى الوراء خطوة، كان صوت حذاء الجندي قد علا حتى ملأ كل صمت الزقاق.

استطاع أن يميز أصوات خطوات أخرى ترافق الجندي، ربما يكون الضابط قد

انضم إلى جنديه، بل ربما انضم إليهما المختار ذاته، لعنة الله عليك، ربما كانت القرية كلها ماضية بملاحقته..

تلفّت بسرعة إلى الوراء ثم عاد يحدق في الرجلين الواقفين في الظل..

- لقد عرفتكما.. افسحا الطريق، إنهم ورائي.

تقدم أحد الرجلين فأمسك به من عنقه، بينما أبعد أبو علي البندقية على مدّ ذراعه إلى الوراء، وأحس بأنه على وشك أن يختنق..

- هاتها أو خنقناك.

- عرفتكما..

وفكر بوجل: "كيف حدث أن اتفقا معاً رغم كل الكراهية التي يحملانها لبعضهما".؟ وصاح بكل ما بقي في حنجرته من متنفس:

- عرفتكما، اتركاني..

- أعطنا إياها وإلا قتلناك..

تلفت أبو علي إلى الوراء، وخيل إليه أنه رأى أشباحاً تتمايل في أول الزقاق فقام بمحاولة عنيفة للخلاص إلا أنه لم يستطع أن يتحرك أنملة، وكان في الوقت ذاته واثقاً من أن يده القابضة على البندقية لن تفلتها شياطين الأرض مجتمعة إلا إذا فلتت يده، من أعلى الكتف، معها.. ولذلك وضع كل قوته في صوته:

- لسوف نموت جميعاً.. اتركاني!

- أعطنا إياها.

- مستحيل.

نظر الرجلان خلفهما، ثم قال أحدهما للآخر:

- والآن ماذا ؟

أجاب الآخر بسرعة:

- حاول أن توقفهم، تحدث معهم، ابق هنا.

تركه أحد الرجلين بينما أمسكه الآخر من مؤخرة عنقه ومن ذراعه ودفعه أمامه بعنف فانطلق يركض مرغماً تحت وطأة القبضات المتحكمة في عنقه وذراعه.

كان أبو علي مرهقاً، وقد زاد التوقف والرعب من إرهاقه وكانت القبضات تشد على عنقه وذراعه بلا رحمة، ورغم ذلك فقد ميز فجأة بأن الطريق الذي يعدو فيه ليس طريق بيته، حاول أن يلتفت، إلا أن قبضة الرجل لم تسمح له.

كان يحس بأنه قد استنزف، وأن السعال المجروح المنطلق من أعمق أعماق رئتيه سوف ينتزع حنجرته ويلقي بها إلى الأرض، لا، ليس طريق بيته هذا الطريق.. مرة أخرى حاول أن يتملص أو يقف إلا أن وطأة القبضتين ازدادت حدة وعنفاً وشراسة، وأحس - فيما كان على وشك أن يبكي- بأن لا مناص.

بيروت-١٩٦١

ثلاثة أوراق من فلسطين

أ - ورقة من الرملة

أوقفونا صفين على طرفي الشارع الذي يصل الرملة بالقدس، وطلبوا منا أن نرفع أيدينا متصالبة في الهواء، وعندما لا حظ أحد الجنود اليهود أن أمي تحرص على وضعي أمامها كي أتقي بظلها شمس تموز، سحبني من يدي بعنف شديد، وطلب مني أن أقف على ساق واحدة، وأن أصالب ذراعي فوق رأسي في منتصف الشارع الترب..

كنت في التاسعة من عمري يومذاك، ولقد شهدت قبل أربع ساعات فقط كيف دخل اليهود إلى الرملة، وكنت أرى وأنا واقف هناك في منتصف الشارع الرمادي كيف كان اليهود يفتشون عن حلى العجائز والصبايا، وينتزعونها منهن بعنف وشراسة، وكان ثمة مجندات سمراوات يقمن بنفس العملية، ولكن في حماس أشد، وكنت أرى أيضاً كيف كانت أمي تنظر باتجاهي وهي تبكي بصمت، وتمنيت لحظتذاك لو أستطيع أن أقول لها إنني على ما يرام، وإن الشمس لا تؤثر في بالشكل الذي تتصوره هي..

كنت أنا من تبقى لها، فأبي قد مات قبل بدء الحوادث بسنة كاملة، وأخي الكبير أخذوه أول ما دخلوا الرملة، لم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أعني بالنسبة لأمي، لكنني الآن أستطيع أن أتصور كيف كانت الأمور ستجري لو أنني لم أكن عندها ساعة وصلت دمشق، لأبيع لها جرائد الصباح وأنا أنادي وأرتجف قرب مواقف الباصات..

لقد بدأت الشمس تذيب صمود النساء والشيوخ.. وارتفعت من هنا وهناك بعض الاحتجاجات اليائسة البائسة، كنت أرى بعض الوجوه التي اعتدت أن أراها في شوارع الرملة الضيقة وتبعث في الآن شعوراً دقيقاً من الأسى، لكنني أبداً لن

أستطيع تفسير ذلك الشعور العجيب الذي تملكني، ساعة رأيت مجندة يهودية تعبث ضاحكة بلحية عمي أبي عثمان..

وعمي أبو عثمان ليس عمي بالضبط، ولكنه حلاق الرملة وطبيبها المتواضع، ولقد تعودنا على أن نحبه منذ وعيناه وأن نناديه بعمي احتراماً وتقديراً، كان واقفاً يضم إلى جنبه ابنته الأخيرة، فاطمة، صغيرة سمراء تنظر بعينيها السوداوين الواسعتين إلى اليهودية السمراء..

- ابنتك؟!

وهز أبو عثمان رأسه بقلق، ولكن عينيه كانتا تلتمعان بتكهن قاتم عجيب، وببساطة شديدة رفعت اليهودية مدفعها الصغير، وصوبته إلى رأس فاطمة، الصغيرة السمراء ذات العيون السوداء المتعجبة دائماً..

في تلك اللحظة، وصل أحد الحراس اليهود في تجواله أمامي، واستلفت نظره الموقف، فوقف حاجباً عني المنظر، ولكنني سمعت صوت ثلاث طلقات متقطعة دقيقة، ثم تيسر لي أن أرى وجه أبي عثمان يتموج بأسى مريع، ونظرت إلى فاطمة، مدلى رأسها إلى الأمام، ونقاط من الدم تتلاحق هابطة خلال شعرها الأسود إلى الأرض البنية الساخنة.

وبعد هنيهة، مر أبو عثمان من جانبي، حاملاً على ساعديه الهرمتين جثة فاطمة، الصغيرة السمراء: كان صامتاً جامداً ينظر أمامه بهدوء رهيب، وما لبث أن مر بي غير ناظر إلي البتة، وراقبت ظهره المنحني وهو يسير بهدوء بين الصفين إلى أول منعطف، وعدت أنظر إلى زوجته جالسة على الأرض ورأسها بين كفيها تبكي بأنين مقطع حزين، وتوجه جندي يهودي نحوها، وأشار لها أن تقف.. ولكن العجوز لم تقف، كانت يائسة إلى آخر حدود اليأس.

هذه المرة، استطعت أن أرى بوضوح كل ما حدث، ورأيت بعيني كيف رفسها الجندي بقدمه، وكيف سقطت العجوز على ظهرها ووجهها ينزف دماً، ثم رأيته، بوضوح كبير، يضع فوهة بندقيته في صدرها، ويطلق رصاصة واحدة..

في اللحظة التالية، توجه الجندي ذاته نحوي، وبهدوء شديد طلب مني أن أرفع ساقي التي أنزلتها للأرض دون أن أشعر وعندما رفعت ساقي راضخاً، صفعني مرتين، ومسح ما علق على ظاهر يده من دم فمي، بقميصي، وشعرت بإعياء مدمر لكنني نظرت إلى أمي، هناك بين النساء، رافعة ذراعيها في الهواء كانت تبكي

بصمت ولكنها في تلك اللحظة ضحكت من خلال بكائها ضحكة صغيرة دامعة، وشعرت بساقي تلتوي تحت ثقلي، وبألم فظيع يكاد يقطع فخذي، لكنني ضحكت أيضاً، وتمنيت مرة أخرى لو أنني أستطيع أن أركض إلى أمي، فأقول لها إنني لم أتألم كثيراً من الصفعتين، وإنني على ما يرام، وأرجوها باكياً أن لا تبكي، وأن تتصرف كما تصرف أبو عثمان قبل هنيهة.

وقطع أفكاري مرور أبي عثمان من أمامي عائداً إلى مكانه بعد أن دفن فاطمة، وعندما حاذاني، غير ناظر إلي البتة، تذكرت أنهم قتلوا زوجته، وأن عليه أن يواجه مصاباً جديداً الآن، وتابعته مشفقاً، خائفاً بعض الشيء، إلى أن وصل إلى مكانه فوقف هنيهة مولياً ظهره المحدودب المبلول بالعرق، لكنني استطعت أن أتصور وجهه: جامداً صامتاً مزروعاً بحبيبات من العرق اللامع، وانحنى أبو عثمان ليحمل على ذراعيه الهرمتين جثة زوجته التي طالما رأيتها متربعة أمام دكانه تنتظر انتهاء من الغداء كي تعود إلى الدار بالأواني الفارغة، وما لبث أن مر بي، وللمرة الثالثة، لاهثاً لهاثاً رفيعاً متواصلا وحبيبات العرق مزروعة في وجهه المغضن، وحاذاني، غير ناظر إلي البتة، وعدت مرة أخرى أراقب ظهره المنحني المبتل بالعرق وهو يسير الهوينى بين الصفين.

لقد كف الناس عن البكاء.

وخيم سكون فاجع على النساء والشيوخ..

وبدا كأنما ذكريات أبي عثمان تنخر في عظام الناس بإصرار، هذه الذكريات الصغيرة التي حكاها أبو عثمان لكل رجال الرملة وهم مستسلمون له على كرسي الحلاقة.. هذه الذكريات التي بنت لنفسها عالماً خاصاً في صدور كل الناس هنا.. هذه الذكريات بدت كأنما تنخر في عظام الناس بإصرار.

لقد كان أبو عثمان، كل عمره، رجلاً مسالماً محبوباً، كان يؤمن بكل شيء، وأكثر ما آمن بنفسه، لقد بنى حياته من اللاشيء، فعندما قذفته ثورة جبل النار إلى الرملة كان قد فقد كل شيء، وبدأ من جديد: طيباً كأي غرسة خضراء في أرض الرملة الطيبة، وكسب حب الناس ورضا الناس، وعندما بدأت حرب فلسطين الأخيرة، باع كل شيء، واشترى أسلحة كان يوزعها على أقاربه ليقوموا بواجبهم في المعركة، لقد انقلبت دكانه إلى مخزن للمتفجرات والأسلحة، ولم يكن يريد لهذه التضحية أي ثمن، كل ما كان يطلب هو أن يدفن في مقبرة الرملة الجميلة المزروعة بالأشجار

الكبيرة، هذا كان كل ما يريده من الناس.. كل رجال الرملة يعرفون أن أبا عثمان لا يريد إلا أن يدفن في مقبرة الرملة عندما يموت.

هذه الأشياء الصغيرة هي التي أسكتت الناس، كانت وجوههم المبلولة بالعرق تنوء تحت ثقل هذه الذكرى..

ونظرت إلى أمي، واقفة هناك، رافعة ذراعيها في الهواء، شادة قامتها كأنها وقفت الآن، تتابع أبا عثمان بنظرها.. صامتة كأنها كوم رصاص، وعدت أنظر إلى بعيد، ورأيت أبا عثمان واقفاً أمام حارس يهودي يحادثه ويشير إلى دكانه، وما لبث أن سار وحيداً باتجاه الدكان، وعاد حاملاً فوطة بيضاء لف بها جثة زوجته.. وتابع طريقه إلى المقبرة.

ثم لمحته عائداً من بعيد، بخطواته الثقيلة وظهره المنحني وساعديه الساقطين إلى جنبيه بإعياء، واقترب مني بطيئاً كما كان يسير، شيخاً أكثر مما كان، معفراً مغبراً يلهث لهاثاً طويلاً رفيعاً، وعلى صدريته نقاط كثيرة من الدم الممزوج بالتراب..

ولما حاذاني، نظر إلي كأنه يمر بي للمرة الأولى ويراني، واقفاً هناك، في منتصف الشارع تحت سطح شمس تموز المحرقة: معفراً مبلولاً بالعرق، بشفة مجروحة مدلاة تجمد عليها الدم، وأطال النظر وهو يلهث، كانت في عينيه معان كثيرة لم أستطع فهمها لكنني أحسستها وما لبث أن عاد إلى مسيره، بطيئاً مغبراً لاهثاً، فوقف، وأدار وجهه للشارع، ورفع ذراعيه وصالبهما في الهواء.

لم يتيسر للناس أن يدفنوا أبا عثمان كما أراد، ذلك أنه عندما ذهب إلى غرفة القائد ليعترف بما يعرف، سمع الناس انفجاراً هائلاً هدم الدار وضاعت أشلاء أبي عثمان بين الأنقاض.

وقالوا لأمي، وهي تحملني عبر الجبال إلى الأردن، إن أبا عثمان عندما ذهب إلى دكانه قبل أن يدفن زوجه، لم يرجع بالفوطة البيضاء، فقط.

دمشق -١٩٥٦

ب - ورقة من الطيرة

"مـاذا كنت أريد أن أقـول؟ نعم، كنت أريد أن أحكي قصة ذلك الزبون الذي يشتري مني كل مساء ثلاثة أقراص من العجوة، إنه زبون من نوع خاص، هذا النوع

الذي يحس ببعض الغبطة- أمام أصحابه على الأقل- لأن له صديقاً عجوزاً يبيع العجوة، أنت تعرف أن ربحي بهذا البيع ليس كبيراً ولكنه، والحمد لله، كاف، فأنا أشتري كل ثلاثة أقراص من العجوة بفرنكين اثنين، وأبيع الواحد بفرنك. ليس هذا فحسب، بل إن مجموعة كثيرة من الزبائن تدفع فرنكاً دون أن تأخذ قرصاً، وهذه هي المجموعة المفضلة عندي، نعم، كنت أريد أن أحكي قصة ذلك الزبون ولكن ما الذي جعلني أنسى؟ آه! ذلك الشرطي ذو الوجه المجروح، إن كثيراً من رجال الشرطة لهم نفوس طيبة، ولكن هذا الشرطي لم يعجبني أبداً! هل رأيته كيف تصرف؟ هل أنا المذنب؟ لقد كنت واقفاً هناك، على المنعطف عندما اقترب مني وقال وهو يهز طبق العجوة "يجب أن تذهب من هنا!" لقد كان شرطياً جديداً، هذا مؤكد، إذ إن بعض الشرطة الطيبين المسؤولين عن هذا الشارع، كانوا يسمحون لي أن أقف هناك..
عندما قال الشرطي ذلك، حاولت أن اشرح له بعض الأمور، لكنه رفع طبق العجوة إلى رأسي وقال: "يجب أن تحمد الله أنني لم أضعه على رأسك مقلوباً" ثم دفعني دفعة شديدة، كأنني يهودي، ولكنني لست يهودياً، وأنت تعرف أن هذه إهانة كبيرة إذ أين كان هذا الابن الحلال يوم كنت أحارب اليهود في الطيرة وفي حيفا؟ أين كان؟ آه! حذار أن تتصور أنني ناقم على هذا الشرطي..

الحمد لله على أي حال. الحمد لله أنني لم أكن خائناً ولا جباناً في يوم من الأيام. ولو كنت كذلك إذن لما كنت سامحت هذا الشرطي.. والذنب في هذا ليس ذنبه.. إنه ذنب الذي أضاع فلسطين وحتم علينا حياة الكفاف هذه، حتم علينا أن نعيش وكأننا خرجنا من فلسطين كي نبحث عن عمل ما فقط..

على كل حال أنا أعرف ما الذي أضاع فلسطين.. كلام الجرائد لا ينفع يا بني، فهم -أولئك الذين يكتبون في الجرائد- يجلسون في مقاعد مريحة وفي غرف واسعة فيها صور وفيها مدفأة، ثم يكتبون عن فلسطين، وعن حرب فلسطين، وهم لم يسمعوا طلقة واحدة في حياتهم كلها، ولو سمعوا، إذن، لهربوا إلى حيث لا أدري، يا بني، فلسطين ضاعت لسبب بسيط جداً، كانوا يريدون منا -نحن الجنود- أن نتصرف على طريقة واحدة، أن ننهض إذا قالوا انهض وأن ننام إذا قالوا نم وأن نتحمس ساعة يريدون منا أن نتحمس، وأن نهرب ساعة يريدوننا أن نهرب.. وهكذا إلى أن وقعت المأساة، وهم أنفسهم لا يعرفون متى وقعت! إنهم لم يعرفوا قط كيف يقودون جنودهم.. كانوا يحسبون أن هؤلاء الجنود ضرب طريف من الأسلحة.. تحتاج

إلى حشو.. صاروا يحشونها بالأوامر المتناقضة، كان الواحد منا يحارب اليهود فقط لأنهم يريدونه أن يحارب اليهود!..

لقد كان هناك أيضاً بعض القادة المخلصين.. ولكن ماذا يستطيع الواحد منهم أن يفعل لوحده؟ ماذا يستطيع أن يفعل ملاك، سقط فجأة إلى جهنم، وعلقت جناحاه في براثن الشياطين؟ لقد تيسر لي أن أدخل معركتين مع إبراهيم أبو ديه، رحمه الله لم يكن يحارب إلا وهو واقف على قدميه كأنه يلقي خطاباً، وكنا كلنا نندفع إلى الأمام كأننا ذاهبون إلى عرس.. رحمه الله.. أنا أعرف شيئاً كثيراً عن حياته، لقد بدأ صغيرا مع عبد القادر الحسيني يأخذ الرسائل عبر الجبال إلى الرفاق، ثم كبر إبراهيم، وحمل البارودة، ونزل إلى المعركة، كان عبد القادر الحسيني يقول إن ابراهيم هو أشجع رجل رآه في حياته، كان ذكياً جداً.. وفي ١٩٤٨ خاض مع رجاله معركة في "ميكور حاييم" وخرج منها بست عشرة رصاصة في ظهره كانت سبب شلله، ثم أمضى أربع سنوات بعدها يتعذب.. أنت تستطيع أن تتصور كيف يكون شعور رجل مشلول أمضى حياته يحارب واقفاً على قدميه.. لقد كان ينظر، فقط، ثم يبتسم، ويعود إلى التفكير بخمس وعشرين ليرة يحتاجها يومياً ثمن حقن المورفين تهدئ من عذابه بعض الشيء.. كان يتعذب، إلى أن فكرت بعض الدول العربية في أن تساعده وبعد مشاورات قررت له راتباً شهرياً لمدى الحياة، وسافر مندوب عن هذه الدول إلى بيروت ليزف البشرى.. وعندما دخل الغرفة، كان إبراهيم أبو ديه يحتضر، وكان ثلاثة رجال يقفون إلى جانب سريره يبكونه.. وطلب إبراهيم منهم بصوت خفيض أن ينشدوا له نشيد موطني.. ووقف الرجال الثلاثة ينشدون له النشيد، وهم يبكون، بينما كان هو يموت، رحمه الله..

لقد تعذب كثيراً ومن كان قرب سريره وهو يموت؟ مسكين! ألم أقل لك إنه لم يكن هناك من يهتم بالأبطال ويحافظ عليهم. لقد تعذب لقد تعذب طويلاً.. وبينما هو يموت دخلت الغرفة امرأة كبيرة في السن.. وقدمت له باقة صغيرة من الزهر الأحمر..

ما اسمه؟.. "الشقيق".. نعم " الشقيق"، يسمونه هناك في القرى " الحنون" وقالت له وهي توشك أن تبكي..

- هذا الحنون"... من هناك.

وأمسك إبراهيم الزهر.. وضمه بعنف إلى صدره، ثم ابتسم وهو يقول..

- أيها الجرح..

ومات وهو يشد على الزهر الذي دفن معه.. أرأيت كيف يموت الأبطال دون أن يسمع بهم أحد؟ أرأيت؟

لم يكن هذا في القدس فقط.. بل في كل مكان... خذ هذا المثال.. لقد كان في "هادار" حيفا مطحنة كبيرة تقتل الناس في شوارع الكرمل دون حساب، لم يكن في حيفا كلها لغم كبير يكفي لنسف هذه المطحنة.. ثم تيسر، بما لا أعرف كيف، أن يذهب قائد حامية حيفا، يومذاك حمد الحنيطي إلى "سوريا" وأن يرجع بلغم كبير، وعندما دخل من رأس الناقورة، استطاعت امرأة يهودية أن تعرف هذا السر، فأبلغت بواسطة اللاسلكي مستعمرة تقع بين عكا وحيفا.. اسمها؟ لا أذكر.. المهم.. مر حمد من عكا في المساء مع رفاقه ومن بينهم "سرور برهم" هل سمعت عنه؟ حسناً، لقد وصلوا قرب المستعمرة قبل أن يهبط الظلام وهناك فاجأته قوة يهودية تريد أن تستولي على اللغم، وطلبت منه أن يستسلم، ولكنه رفض.. ودافع دفاعاً مجيداً مع رفاقه القلائل حتى تساقطوا من حوله واحداً إثر واحد.. هل يسلم اللغم وينقذ حياته؟ طبعاً لا.. لقد وقف حمد ورفع يديه، وعندما اقترب اليهود ليمسكوه، أطلق رصاصة واحدة على اللغم الكبير، لقد قال الناس يومها أنهم سمعوا انفجار اللغم من عكا.. وتطايرت أشلاء اليهود، وتمزع الشهيد إلى درجة أنهم لم يستطيعوا أن يجدوا أي شيء منه كي يدفنوه..

ماذا كنت أريد أن أقول لك؟.. آه.. إن المسؤولين لم يحافظوا على أبطالهم.. ولم يكونوا على معرفة بأي أصول للمعارك.. لقد استشهد القائد مع رفاقه، أنا لا أريد أن أناقشك في أنه تصرف على شكل معقول أو متهور، ولكن أريد أن أسأل.. ماذا حدث لأهالي الشهداء؟ والقيادة في حيفا كيف تصرفت حتى تملأ المكان الذي خلفه الشهداء؟ ألم تدب الفوضى في حيفا إلى درجة مؤلمة؟

ماذا أريد أن أقول؟ آه، عن المسؤولين وعنا.. خذ ما حدث في "الريفاينري" هذا المصنع الكبير لتكرير النفط، هناك كان يشتغل العمال العرب واليهود، جنباً إلى جنب، وكنت أنا أشتغل في ذلك المصنع، وجرى حادث صغير نسيت معظم تفاصيله، لقد ألقى يهودي قنبلة على حارس عربي كان يقف على باب المصنع، فقتله، وكان حزننا شديداً عندما سمعنا عن موت الحارس ورفاقه، فأغلقنا الباب الكبير للمصنع ثم استعملنا في قتل الصهاينة جميع الوسائل، لقد تقابلنا يومذاك وجهاً لوجه وكلانا مجرد من سلاحه، ولم يكن أي محل يتسع لسوى الرجولة فقط، واستطعنا أن نتغلب

عليهم، لم يكن عندنا في الداخل، سلاح من أي نوع، فاستعمل بعضنا "التراكتور" واستعمل أكثرنا الرفش والفأس ذا الرأسين الطويلين، وحدثت المعركة. لم نبق على عدو واحد، كان معظمنا جديداً على هذا النوع من القتال، ولكن الجميع قاتلوا كأنهم رجل واحد، رامين إلى الشيطان بمستقبل وظائفهم، غير آبهين البتة إلى توسلات اليهود الذين كانوا يقولون إننا عمال أكلنا العيش والملح سوية.. ثم ماذا حدث بعد ذلك، بعد أن قتلنا عشرات اليهود؟ وبعد أن تركنا أعمالنا في "الريفاينري" وأخذنا نتجول في الشوارع كالشحاذين كما أتجول الآن، هل تعتقد أنهم أعطونا أسلحة وقالوا لنا: حاربوا معنا.. وموتوا معنا؟ لقد أهملنا المسؤولون إلى درجة أنني سمعت أنهم قالوا إننا جزارون ولسنا محاربين وهم حتماً لا يحتاجون إلينا فلذلك علينا أن نذهب إلى حيث نشاء كي نحارب كيف نشاء.. وضد من نشاء! جزارون! هكذا قالوا.. وأي نوع من المحاربين يريدون؟ محاربون يلبسون المعاطف البيضاء ويردون على الجرائم اليهودية بابتسامات عذاب؟ أم يريدوننا أن نحارب بمحاضر جلسات جامعة الدول العربية؟.

اسمع ماذا جرى لهذا المحارب المهذب.. لقد كان سائقاً لسيارة عمومية، وشاهد امرأة يهودية تعدو هاربة أمام مجموعة من الأطفال كانوا يرجمونها بالحجارة.. كانت الحوادث في بدء توترها، فما كان منه إلا أن نهر الأطفال، وأمسك المرأة من يدها، وقادها إلى حيث أوقف سيارته، وذهب بها إلى أهلها في تل أبيب، هل تعرف ماذا حدث هناك؟ لقد سرقوا سيارته، وقتلوه. مزقوه ورموا بجثته مقابل جامع الشيخ حسن.. فكيف يريدوننا أن نحارب أناساً من ذلك النوع؟ بالورود؟

هذا هو الذي أضاع فلسطين، يا بني، هل تفهم من هذا أنني أريد أن ترسل رسالة شكر إلى كل جندي يصيد عدوه؟ كلا.. كلا.. معاذ الله.. لكنني كنت أعني أن عليهم أن يتفقوا على شيء ما.. أن يقرروا كيف يتوجب عليهم أن يتصرفوا.. أن يحترموا شعور المحارب الذي يفقد رفاقه في كل معركة.. على أي حال أنا لا أريد أن أحدثك كثيراً عن المعارك، لقد كنت كل عمري أضحك على أولئك العجائز الذين لم يكونوا يجدون غير ذكريات قتالهم في السفر برلك يسمعوننا إياها، ولكن الذي أريد أن أقوله، إنني حاربت، أكثر مما يستطيع الشخص الواحد أن يفعل، ولكن الخطأ لم يكن مني أنا، كان من فوق، من هؤلاء الذين يقرأون ويكتبون ويرسمون خطوطاً ملتوية ينظرون إليها باهتمام.. أما أنا.. فماذا أستطيع أن أفعل غير أن أحمل

بارودتي وأن أهجم، وأن أنظر إلى حيث يشير رئيسي ثم أركض في ذلك الاتجاه وسلاحي في يدي؟

المهم أن علينا أن لا ننسى ما حدث عندما نلتقي مرة أخرى.. وأن علينا أن نحارب اليهود كما يفعل محررو الجرائد أولئك في غرفهم عندما يجدون كمية كبيرة من الذباب!

كم أنا ثرثار

كنت أريد أن أحكي لك عن ذلك الزبون الذي يشتري مني ثلاثة أقراص من العجوة دفعة واحدة كل مساء.. ولكم الحديث جرني، والذنب في هذا، هو ذنب ذلك الشرطي الذي طردني من مكاني المختار كأنه يطرد لصاً..

لو أنني حكيت لذلك الشرطي قصتي، وقلت له من أنا إذن لضحك ضحكاً متواصلاً، ولقلب الطبق على رأسي كما كان ينوي أن يفعل. لذلك فأنا لن أذهب لأطلب منه أن يحترمني.. فهذا شيء مضحك.. لكنني يوماً ما، سآتي من فلسطين ماشياً على قدمي، كما أتيت في المرة الأولى، وسأبحث عن الشرطي هذا ما استطعت، ثم سأدعوه لأن يقضي شهراً كاملاً في طيرة حيفا على حسابي.. له الخيار في أن يتنقل فيها كما يشاء، ويقف حيث يشاء..

دمشق -١٩٥٧

جـ _ورقة من غزة

عزيزي

استلمت رسالتك الآن، وفيها تخبرني أنك أتممت لي كل ما أحتاجه ليدعم إقامتي معك في سكرمنتو، وكذلك وصلني ما يشعر أنني قبلت في فرع الهندسة المدنية في جامعة كاليفورنيا، لا بد لي يا صديقي من شكرك على كل شيء، لكن سيبدو لك غريباً بعض الشيء، أن أزف إليك هذا النبأ، وثق تماماً يا مصطفى أنني لا أشعر بالتردد قط، بل أكاد أجزم أنني لم أر الأمور بهذا الوضوح أكثر من الساعة، لا يا صديقي.. لقد غيرت رأيي، فأنا لن أتبعك "إلى حيث الخضرة والماء والوجه الحسن" كما كتبت، بل سأبقى هنا، ولن أبرح أبداً.

إنه لشيء يزعجني حقيقة، يا مصطفى، أن لا نكمل ذلك الجريان لحياتينا في

خط واحد، فإني أكاد أسمعك تذكرني بعهدنا على الاستمرار معاً. وكيف كنا نهتف: "سنصير أغنياء"، ولكن يا صديقي ليس في يدي حيلة، نعم، إنني لا زلت أذكر تماماً يوم وقفت في ساحة المطار في القاهرة، أشد على يدك وأحدق بالمحرك المجنون، كان كل شيء ساعتئذ يدور مع المحرك ذلك الدوران الصاخب، وكنت أنت تقف أمامي، بوجهك المليء الصامت، لم يتغير وجهك عن الوجه الذي نشأت به في حي "الشجيعة" في غزة، لولا هذه الغضون المسطحة، لقد نشأنا معاً، وكان واحدنا يفهم الآخر تمام الفهم، وتعاهدنا على الاستمرار معاً إلى النهاية..

ولكن:

- "بقي ربع ساعة وستقلع الطائرة، لا تحدق هكذا باللاشيء، اسمعني، ستذهب في العام القادم إلى الكويت، وستوفر من راتبك ما يقتلعك من غزة إلى كاليفورنيا، لقد بدأنا معاً، ويجب أن نستمر.."

وكنت لحظتذاك أرقب شفتيك وهما تتحركان بسرعة، هكذا كانت طريقتك في الكلام: لا فواصل ولا نقط، لكنني كنت أحس إحساساً غامضاً أنك غير راض تماماً عن هروبك، لم تكن تستطيع أن تعد ثلاثة أسباب وجيهة لهذا الهروب، وكنت أعاني أنا أيضاً من هذا التمزق، ولكن الشعور الأوضح كان: لماذا لا نترك هذه الغزة ونهرب.. لماذا؟ إلا أن وضعك كان قد أخذ يتحسن، فلقد تعاقدت معك معارف الكويت دون أن تتعاقد معي، وفي غمرة من البؤس الذي كنت أعيش فيه، كانت تصلني منك في بعض الأحيان مبالغ صغيرة، كنت تريدني أن أعتبرها ديناً، خوف أن أشعر بالصغار، لقد كنت تعرف ظروفي العائلية تماماً، وكنت تعرف أن راتبي الضئيل في مدارس وكالة الغوث الدولية لم يكن يكفي لإعالة أمي، وزوجة أخي الأرملة وأولادها الأربعة.

- "اسمعني جيداً، اكتب لي كل يوم.. كل ساعة.. كل دقيقة، لقد أوشكت الطائرة أن تطير، استودعك الله، بل قل إلى اللقاء.. إلى اللقاء."

ومست شفاهك الباردة وجنتّي، وأدرت عني وجهك ميمماً شطر الطائرة، وعندما التفت إليَّ مرة ثانية كنت أرى دموعك..

وبعدها تعاقدت معي معارف الكويت، لا داعي لأن أكرر عليك كيف كانت تجري تفاصيل حياتي هناك، فلقد كنت أكتب لك دائماً عن كل شيء، كانت حياتي دبقة، فارغة، كمحارة صغيرة: ضياع في الوحدة الثقيلة، وتنازع بطيء مع مستقبل

غامض كأول الليل، وروتين عفن، ونضال ممجوج مع الزمن، كل شيء كان لزجاً حاراً، كانت حياتي كلها زلقة، كلها توق إلى آخر الشهر!

وفي منتصف العام، ذلك العام، ضرب اليهود مركز الصبحة، وقذفوا غزة، غزتنا، بالقنابل واللهب، كان يمكن أن يغير لي هذا الحدث شيئاً من الروتين، لكنه لم يكن لي ما آبه له كثيراً: فأنا سأخلف هذه الغزة ورائي، وسأمضي إلى كاليفورنيا أعيش لذاتي التي تعذبت طويلاً، إنني أكره غزة، ومن في غزة: كل شيء في البلد المقطوع يذكرني بلوحات فاشلة رسمها بالدهان الرمادي إنسان مريض، نعم، لقد كنت أرسل لأمي، ولأرملة أخي وأولادها، مبالغ ضئيلة تعينهم على الحياة، لكنني- أيضاً- سأتحرر من هذا الخيط الأخير، هناك، في كاليفورنيا الخضراء البعيدة عن رائحة الهزيمة التي تزكم أنفي منذ سبع سنوات.. إن الشفقة التي تربطني بأولاد أخي وأمهم وأمي، لا تكفي أبداً لتبرير جريان مأساتي هذا الجريان الشاقولي.. لا يمكن أن تشدني إلى تحت.. أكثر مما شدتني.. يجب أن أهرب!

أنت تعرف يا مصطفى هذه الأحاسيس، لأنك عشتها فعلاً: ما هذا الشيء الغامض الذي كان يربطنا إلى غزة فيحد من حماسنا إلى الهروب؟ لماذا لانشرح الأمر تشريحاً يعطيه معنى واضحاً، لماذا لا نترك هذه الهزيمة، بجراحها، ونمضي إلى حياة أكثر ألوانا وأعمق سلوى.. لماذا؟ لم نكن ندري بالضبط!

وعندما أخذت إجازتي في حزيران، وجمعت كل ما أملك توقاً إلى الانطلاقة الحلوة، إلى هذه الأشياء الصغيرة التي تعطي الحياة معنى لطيفاً ملوناً، وجدت غزة كما تعهدها تماماً: انغلاقاً كأنه غلاف داخلي، ملتف على نفسه، لقوقعة صدئة قذفها الموج إلى الشاطئ الرملي اللزج قرب المسلخ، غزة هذه، أضيق من نفس نائم أصابه كابوس مريع، بأزقتها الضيقة، ذات الرائحة الخاصة، رائحة الهزيمة والفقر، وبيوتها ذوات المشارف الناتئة.. هذه غزة، لكن ما هي هذه الأمور الغامضة، غير المحددة، التي تجذب الإنسان لأهله، لبيته، لذكرياته، كما تجذب النبعة قطيعاً ضالاً من الوعول، لا أعرف! وكل الذي أعرف أنني ذهبت لأمي في دارنا ذلك الصباح، وطلبت مني، وهي تبكي، أن ألبي رغبة ناديا، ابنتها الجريحة في مستشفى غزة، فأزورها ذلك المساء. أنت تعرف ناديا ابنة أخي الجميلة ذات الأعوام الثلاثة عشر؟

في ذلك المساء اشتريت رطلاً من التفاح ويممت شطر المستشفى أزور ناديا.. كنت أعرف أن في الأمر شيئاً أخفته عني أمي وزوجة أخي، شيئاً لم تستطيعا أن

تقولاه بلسانيهما.. شيئاً عجيباً لم أستطع أن أحدد أطرافه البتة! لقد اعتدت أن أحب ناديا، اعتدت أن أحب كل ذلك الجيل الذي رضع الهزيمة والتشرد، إلى حد حسب فيه أن الحياة السعيدة ضرب من الشذوذ الاجتماعي.

ماذا حدث في تلك الساعة؟ لا أدري! لقد دخلت الغرفة البيضاء بهدوء جم، إن الطفل المريض يكتسب شيئاً من القداسة فكيف إذا كان الطفل مريضاً أثر جراح قاسية مؤلمة؟ كانت ناديا مستلقية على فراشها، وظهرها معتمد على مسند أبيض انتثر عليه شعرها، كفروة ثمينة، كان في عينيها الواسعتين صمت عميق، ودمعة هي أبداً في قاع بؤبؤها الأسود البعيد، ووجهها كان هادئاً ساكناً، لكنه موح كوجه نبي معذب، لا زالت ناديا طفلة، لكنها كانت تبدو أكثر من طفلة، أكثر بكثير، وأكبر من طفلة، أكبر بكثير..

– ناديا..

لا أدري، هل أنا الذي قلتها أم إنسان آخر خلفي، لكنها رفعت عينيها نحوي، وشعرت بهما تذيبانني كقطعة من السكر سقطت في كوب شاي ساخن، ومع بسمتها الخفيفة، سمعت صوتها:

– عمي.. وصلت من الكويت؟

وتكسر صوتها في حنجرتها، ورفعت نفسها متكئة على كفيها ومدت عنقها نحوي فربت على ظهرها، وجلست قربها:

– ناديا، لقد أحضرت لك هدايا من الكويت، هدايا كثيرة سأنتظرك إلى حين تنهضين من فراشك سالمة معافاة، وتأتين لداري فأسلمك إياها، ولقد اشتريت لك البنطال الأحمر الذي أرسلت تطلبينه مني.. نعم.. لقد اشتريته..

كانت كذبة ولّدها الموقف المتوتر، وشعرت وأنا ألفظها كأنني أتكلم الحقيقة لأول مرة، أما ناديا فقد ارتعشت كمن مسه تيار صاعق، وطأطأت رأسها بهدوء رهيب، وأحسست بدمعها يبلل ظاهر كفي:

– قولي يا ناديا.. ألا تحبين البنطال الأحمر؟

ورفعت بصرها نحوي، وهمت أن تتكلم، لكنها كفت، وشدت على أسنانها، وسمعت صوتها مرة أخرى من بعيد:

– يا عمي!

ومدت كفها، فرفعت بأصابعها الغطاء الأبيض، وأشارت إلى ساق مبتورة من

أعلى الفخذ...

يا صديقي..

أبداً لن أنسى ساق ناديا المبتورة من أعلى الفخذ، لا، ولن أنسى الحزن الذي هيكل وجهها واندمج في تقاطيعه الحلوة إلى الأبد.. لقد خرجت يومها من المستشفى إلى شوارع غزة، وأنا أشد باحتقار صارخ على الجنيهين اللذين أحضرتهما معي لأعطيهما لناديا، كانت الشمس الساطعة تملأ الشوارع بلون الدم.. كانت غزة، يا مصطفى، جديدة كل الجدة، أبداً لم نرها هكذا أنا وأنت: الحجارة المركومة على أول حي الشجعية، حيث كنا نسكن، كان لها معنى كأنما وضعت هناك لتشرحه فقط، غزة هذه التي عشنا فيها ومع رجالها الطيبين سبع سنوات في النكبة كانت شيئاً جديداً، كانت تلوح لي أنها.. أنها بداية فقط، لا أدري لماذا كنت أشعر أنها بداية فقط، كنت أتخيل أن الشارع الرئيسي، وأنا أسير فيه عائداً إلى داري، لم يكن إلا بداية صغيرة لشارع طويل طويل يصل إلى صفد، كل شيء كان في غزة هذه ينتفض حزناً على ساق ناديا المبتورة من أعلى الفخذ، حزناً لا يقف على حدود البكاء، إنه التحدي، بل وأكثر من ذلك، إنه شيء يشبه استرداد الساق المبتورة!..

لقد خرجت إلى شوارع غزة، شوارع يملؤها ضوء الشمس الساطع، لقد قالوا لي إن ناديا فقدت ساقها عندما ألقت بنفسها فوق أخوتها الصغار تحميهم من القنابل واللهب وقد أنشبا أظفارهما في الدار، كان يمكن لناديا أن تنجو بنفسها، أن تهرب.. أن تنقذ ساقها، لكنها لم تفعل..

لماذا؟

* * *

لا يا صديقي! لن آتي لسكرمنتو، وأنا لست آسفاً البتة، لا ولن أكمل ما بدأناه معاً منذ طفولتنا: هذا الشعور الغامض الذي أحسسته وأنت تغادر غزة.. هذا الشعور الصغير يجب أن ينهض عملاقاً في أعماقك.. يجب أن يتضاخم، يجب أن تبحث عنه كي تجد نفسك.. هنا بين أنقاض الهزيمة البشعة..

لن آتي إليك.. بل عد أنت لنا.. عد.. لتتعلم من ساق ناديا المبتورة من أعلى الفخذ، ما هي الحياة.. وما قيمة الوجود..

عد يا صديقي فكلنا ننتظرك..

الكويت - ١٩٥٦

الأخضر والأحمر

-١-

النزال

لم يكن يظن لحظة واحدة، أنه قريب من الموت قرب أنفه من الهواء.. لم يكن يظن ذلك قط.. كل الطريق كانت تعبق بحياة بكر كأنها خلقت لتوها، كأن الله صنعها الآن فحسب ليتنشقها، وليتركها تغسل صدره مثل شلال من الريش.. أيار يبرعم في جبينه وكفيه وأضلاعه ويشمه فينهال إلى صدره دوامات لا تنضب ولا تنثني.. كيف تريده أن يظن، لحظة واحدة، إنه قريب من الموت قرب الهواء إلى أنفه؟ ولكنه كان قريباً منه، كان قريباً منه دون أن يحسه أو يشمه.. لم تكن عنده مقدرة شم الموت كما كانت عنده قدرة إحساس الحياة.. وقالوا له مرة إن هذا خطأ مهلك، وإن الحياة لا قيمة لها قط إن لم تكن، دائماً، واقفة قبالة الموت.. ولكنه لم يكن يبالي.. بينه وبين النظريات المتقعرة ما بين أيار والكفن.. وبينه وبين الموت ما بين تراب أيار والجفاف..

كان ماضياً إلى الزوج والولد وجدران اللحم والحب التي كانت دائماً هناك، في أيار وفي غير أيار.. التعريشة الخماسية التي تتسلق بأصابع ثابتة جدار الدار الخشن فتصبغه بكل خضرة البعث وتجعل منه شجرة، فرع شجرة عريض يحضن الزوج والولد وجدران اللحم والحب.. بينه وبين الموت ما بين الموت والحب، لم يكن يظن لحظة واحدة، أن بينه وبين الزوج والولد وجدران اللحم والحب لحظة موت واحدة، واقفة عند المنعطف، مشهرة أظافرها العشرة كأنصال مشرعة بالانتظار..

لحظة موت واحدة ولكنها حاسمة ونهائية.. ولم يكن يعرف، هو، أنها واقفة هناك، بالانتظار، كان بينه وبينها يقف أيار..

إلا أنه كان لا بد أن يمر من ذلك المنعطف، ولمدى لحظة واحدة فقط أحس رجفة الترقب الرهيب، فباطأ خطواته هنيهة وأصاخ السمع، وحينما لمعت أمام بصره

الأظافر المشرعة لم يفكر إلا بالنزال..

قد يكون ذلك حدث منذ زمن سحيق..

سحيق كأزل بلا قرار.. سحيق كالعدم أو بذرة العبث، وراء مدى التذكر، فوق مستوى التخمين، ولكنه الآن ودائماً في صلب الإحساس، ينز الدم كل لحظة، ويخفق مرتجاً مثل سمكة هلامية علّ الارتجاج يرجعها إلى الموج الذي رماها فوق رمل الشاطئ..

النزال! ما زال يذكر مقاطع مقطعة منه، ممزوجة بالوعي وبالغيبوبة: لقد انهالت الأظافر عليه فأعملت به تمزيقاً، تجمعت حواليه فافترست جلده وانغرزت في خاصرتيه ورئتيه فأخذ يلهث دماءه، كلما استدار سدت عليه الأظافر منافذ الحياة ومنافذ أيار وتشابكت كالسيوف أمام عينيه وأنفه فمنعت عنه الرؤية ومنعت عنه الهواء.. ومثل من على وشك أن يستيقظ أو ينام تعرف إلى بعض تلك الأظافر ولكن حنجرته كانت قد تجرحت وسدتها الدماء فحشرج: حتى أنت؟ وفي لحظة تالية أحس دبيب الموت، إلا أن أيار كان ضخماً وكان كبيراً وكان قد صبغ الطريق بالخضرة.. أحس بالأصابع تغوص إلى قلبه فتبقره، وانهالت خيوط الدم فوق صدره زاحفة مثل أفاع حمراء رفيعة وتجمعت عند قدميه وسالت جدولاً قانياً في الطريق..

انسحبت الأظافر فبقي جامداً واقفاً لمدى لحظات كالدهر.. لقد أحس بالحياة تتسرب من جسده وبات إحساسه بالموت صلباً وكبيراً ولكنه لم يشأ أن يقع فتجالد واضعاً كفيه فوق وجهه.. إلا أن الموت كان قد وصل، وسمعه يمشي فتخفق خطواته بالأناشيد البعيدة.. لقد أتى من تحت، تسلق ساقيه فأحس بالعجز، ولمدى لحظة واحدة عرف أن كل شيء قد انتهى، وأن بينه وبين الزوج والولد وجدران الحب واللحم ما بين أنفه والهواء.. بينه وبين أيار ما بين خضرة أيار وجدول الدم.. سقط، حفرت ركبتاه في الأرض حفرتين مدورتين.. بقي راكعاً وكفاه فوق وجهه، لحظة واحدة فحسب، أيار يتراجع، جدول الدم يفتش عن مصب، وصل الموت بأناشيده إلى خاصرتيه فوقع، حفر جبينه حفرة مدورة في التراب.. صمت الموت: الشهيد يصلي..

-٢-

جدول الدم

في نفس تلك اللحظة حدث شيء لم يلحظه أي إنسان من بين أولئك الذين تكوموا حول الميت ينظرون إليه بفضول قبل أن تصل سيارة الصحة فتحمل الجسد

إلى القبر أو إلى المحرقة..

ذلك انه في المكان الذي سقط فوقه الجبين، في الحفرة المدورة التي صنعتها السقطة، ولد طفل صغير..

ليس يدري أحد بالضبط كيف حدث ذلك، الآن، بوسع الكثيرين أن يقولوا بأن الطفل الصغير انبثق من الجبين بعد أن أنضجه التراب الساخن الرطيب.. بوسع غيرهم أن يقولوا بأن الطفل كان موجوداً في التراب أصلاً فأيقظته السقطة.. ولكن الحقيقة الأقرب للتصديق أن الطفل انبثق من العينين، لفظته العينان مثلما يلفظ الرحم المترع الوليد.. وأن في عين كل رجل -يقتل ظلماً- يوجد طفل يولد في نفس لحظة الموت، إلا أنه سرعان ما يموت هو الآخر لأن مسافة السقوط، من عين الرجل إلى الأرض مسافة طويلة لا تتحملها بنيته الضئيلة.. على أي حال لقد عاش ذلك الطفل لأنه غاص في الرمل، وعاش هناك دون أن يلحظه إنسان فيدوسه قاصداً أو غير قاصد..

كان مخلوقاً ضئيلاً له ملامح رجل.. كان وجهه حاد الملامح حتى ليخيل للمرء، لو يراه، بأنه منحوت من حجارة صلدة بإزميل خشن، كان فمه مطبقاً بإحكام فهو لا يتكلم، وكانت جفونه ملتصقة ببعضها فهو لا يرى، وكان ضئيلاً ضئيلاً مثل عقدة الإصبع، أسود اللون قاتماً قاتماً كالليل، إلا أن قلبه كان شديد البياض، كان الشيء الأبيض الوحيد في الجسد الضئيل وكان بوسع المحدق إلى الصدر الأسود أن يراه ينتفض، كمنقار عصفور قزم، داخل تلك الضلوع المتشابكة السوداء..

كانت بنيته الصغيرة متينة ومتناسقة وبديعة، كفاه فيهما عشرة أصابع كل أصبع له ثلاث عقد، تماماً مثل الإنسان، وكانت عضلات صدره تنغرس فوق ضلوعه كالصدف الأسود ، وكانت له أحلامه وآماله وأوجاعه ومطامحه وذكرياته تماماً مثل سائر البشر.. كل الفرق هو أنه كان صغيراً جداً، وكانت عيناه مغلفتين وشفتاه ملتصقتين.. ولكنه كان يتنفس، وكانت أكوام التراب المتراكمة فوقه وحوله غير قادرة على قتله..

لم يلحظ ولادته أي إنسان ولم ينتبه إليه أحد حين غاص في الرمل الرطب عميقاً.. ولما حمل الحفارون جسد الميت إلى المقبرة أو المحرقة تفرق الناس، فخفت من فوق كاهل الأسود الصغير وطأة أقدام الجموع.. عندها فقط اكتشف أنه وحيد وتائه، إلا أنه لم يستطع أن يحول بين ساقيه وبين رغبة المسير، فانطلق إلى

الأمام، شاقاً بأظافره طريقه الصغير، كالدودة، داخل تلك الرمال المتراكمة حواليه وفوقه دون توقف ودون تعب، ساعة وراء ساعة ويوماً إثر يوم على غير هدى وعلى غير ضياء، يأكل رملاً ويتنفس رملاً ويشرب عصير الرمل، لا يلتفت إلى الوراء ولا يتطلع إلى فوق ولا يحول رأسه إلى الجوانب.. وكان يحس، فيما هو يشق طريقه المظلم، أقدام الناس فوق رأسه تروح وتجيء فيشعر بأنه لو جرب أن يصعد إلى فوق إذن لديس كما تداس الخنافس.. أصوات أقدام، هدير أنهار، هرج أمواج، كل لحظة كل ساعة كل يوم.. ووراءه كان يجري جدول الدم كأنه يلاحقه، كأنه قدره..

-٣-

الموت للند

مرت سنوات وأنت تحت الأقدام أيها الأسود الصغير! تراك انبثقت من حدقة أبيك أعمى أبكم أم أن التراب ملأ فمك وانزرع في عينيك؟ بينك وبين النور سنوات أيها الأسود الصغير، وبينك وبين جدران اللحم والحب سنوات! أهو قدرك، أيها الأسود الصغير، أن تعيش في التراب وتتنفس في الظلام وتلاحق بجدول الدم؟ أهو قدرك، أيها الأسود الصغير أن تداس كل عمرك وأن يطأ الناس، كل الناس، فوق كاهلك، وأن تأكل تراباً وتتنفس وتشرب عصير التراب؟

أيها العملاق الممسوخ، يا عين أبيك المذبوح بالأظافر، لماذا لا تموت؟ لماذا لا تتوقف لحظة واحدة تحت تلك الأكوام من الأتربة فينطفئ الضوء الأبيض المعلق في صدرك؟ أتراك تدري بأن حياتك مرهونة بذلك التراكض الوحشي المذعور؟ أتراك تعرف بأنك توقفت لأغرقك مد الدم ولانتهيت؟ أيها الأسود الصغير التعس.. أيها الأسود الصغير التعس لماذا لا تموت؟

* * *

إلا أن الولد الضئيل لم يكن يبالي بكل تلك الهواجس التي كانت تلح على رأسه، وكان يواصل سعيه كالمسعور مستشعراً ذلك الهدير الشيطاني لنهر الدم وراءه، متلمساً طريقه بحذق الأعمى وصلابة الحجر.. في غمرة تلك السنين المديدة صار بوسع أظافره أن تخدش الحديد إذا ما اعترض الانطلاق المصمم. ولم تعد الهواجس الرمادية قادرة على إيقاف الحماس الملتهب لحظة واحدة.

بعـد كل تلك السنين التي مرت على ولادته، لم يحس به أحد، ولذلك لم يعط اسماً، لم يضعه أحد في حسابه ليتعرف عليه باسم أو بلقب.. لم يشعر وجوده أحد.. صحيح؟ كلا! واحد فقط، الموت الذي ذبح أباه بأظافره عند منعطف أيار قبل سنوات وسنوات كـان يعلم أن الوليـد الأسود موجـود في مكان مـا تحت تلك الأرض فحـشـد الأقدام لتدوس منافذ الخروج.. لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك

***

كبـرت أيها الأسود الصغـير! صـار عمرك أربع عشرة سنـة، أربعة عشر أيار من فوقك، جدول الدم سقى أربعـة عشر ربيعاً أيها الأسود الصغير وأنت ماض كالدود تبحث عن ماذا؟ أي خلاص ترتجي؟ أين ستنتهي بك الطريق أيها التعس.. ألم تفكر قط بأن تنتـهي؟ بأن تريح الأقـدام من عنـاء البـحث عنك لتـدوسك؟ عن أيـة نهـاية تبـحث؟ عن أية نهـاية؟ مـا زال القنديـل الأبيض ينوس في صدرك.. حتى متى؟ أنت صغير على النزال.. والأظافر العشرة ما زالت مشرعة لامعة كالأنصال تترقب بزوغك لتجفف بجلدك الأسود جدول الدم..

أنت صغير على نزال أعدائك أيها المسخ..

يا عين أبيك القتيـل فوق ربيع أيار

أيهـا الذي يعيش تحت أكداس الأقدام.. أكبر.. أكبر.. لماذا لا تكون نداً قبل أن تموت؟

مت.. مت.. لقد نزفت عرقك وأذبت عضلك دون أن تطفئ تلك النقطة البيضاء المعلقـة في صـدرك كـالقنديل.. مت! مـاذا بقي منك؟ تقـول الكثـيـر؟ نطقت؟ انفكت شـفـتـاك عـن أسنانك؟ لقـد نزفت من العـرق مـا يصنـع ألف رجل كـبـيـر.. يـا عـقـدة الإصبع! أيها المسخ، يا عين الشهيد.. لا تمت قبل أن تكون نداً.. لا تمت..

بيروت - ١٩٦٢

أرض البرتقال الحزين

عندما خرجنا من يافا إلى عكا لم يكن في ذلك أية مأساة.. كنا كمن يخرج كل عام ليمضي أيام العيد في مدينة غير مدينته. ومرت أيامنا في عكا مروراً عادياً لا غرابة فيه، بل ربما كنت لصغري وقتذاك استمتع بتلك الأيام لأنها حالت دوني ودون الذهاب للمدرسة.. مهما يكن، ففي ليلة الهجوم الكبير على عكا بدأت تتوضح الصورة أكثر فأكثر.. ومضت تلك الليلة قاسية مرة بين وجوم الرجال، وبين أدعية النسوة.. لقد كنا أنا وأنت ومن في جيلنا، صغاراً على أن نفهم ماذا تعني الحكاية من أولها إلى آخرها.. ولكن في تلك الليلة بدأت الخيوط تتوضح وفي الصباح، ساعة انسحب اليهود متوعدين مزبدين... كانت سيارة شحن كبيرة تقف في باب دارنا.. وكانت مجموعة بسيطة من أشياء النوم تقذف إليها من هنا وهناك بحركات سريعة محمومة.. كنت أقف متكئاً بظهري على حائط البيت العتيق عندما رأيت أمك تصعد إلى السيارة، ثم خالتك، ثم الصغار، وأخذ أبوك يقذف بك وبأخوتك إلى السيارة، وفوق الأمتعة، ثم انتشلني من زاويتي ورفعني فوق رأسه إلى القفص الحديدي في غرفة السائق حيث وجدت أخي رياض جالساً بهدوء.. وقبل أن أثبت نفسي في وضع ملائم، كانت السيارة قد تحركت.. وكانت عكا الحبيبة تختفي شيئاً فشيئاً في منعرجات الطرق الصاعدة إلى رأس الناقورة..

كان الجو غائماً بعض الشيء، وإحساس بادر يفرض نفسه على جسدي، كان رياض جالساً بهدوء شديد، رافعاً ساقيه إلى ما فوق حافة القفص، ومتكئاً بظهره على الأمتعة محدقاً في السماء.. وكنت أنا جالساً بصمت، واضعاً ذقني بين ركبتي طاوياً فوقهما ذراعي.. وحقول البرتقال تتوالى على الطريق.. وشعور بالخوف يتآكلنا جميعاً.. والسيارة تصعد لاهثة فوق التراب الندي.. وطلقات بعيدة كأنها تحية الوداع...

وعندما بدأت رأس الناقورة تلوح من بعيد، غائمة في الأفق الأزرق وقفت السيارة.. ونزلت النسوة من بين الأمتعة وتوجهن إلى فلاح كان يجلس القرفصاء واضعاً سلة برتقال أمامه مباشرة.. وحملن البرتقال.. ووصلنا صوت بكائهن... وبدا لي ساعتذاك أن البرتقال شيء حبيب.. وأن هذه الحبات الكبيرة النظيفة هي شيء عزيز علينا.. كانت النساء قد اشترين برتقالات حملنها معهن إلى السيارة، ونزل أبوك من جانب السائق، ومد كفه فحمل برتقالة منها.. أخذ ينظر إليها بصمت... ثم انفجر يبكي كطفل بائس...

في رأس الناقورة.. وقفت سيارتنا بجانب سيارات كثيرة... وبدأ الرجال يسلمون أسلحتهم إلى رجال الشرطة الواقفين لهذا الغرض... وعندما أتى دورنا، ورأيت البنادق والرشاشات ملقاة على الطاولة... ورأيت إلى صف السيارات الكبيرة يدخل لبنان طاوياً معارج طرقاتها ممعناً في البعد عن أرض البرتقال... أخذت أنا الآخر، أبكي بنشيج حاد.. كانت أمك ما زالت تنظر إلى البرتقالة بصمت.. وكانت تلتمع في عيني أبيك كل أشجار البرتقال التي تركها لليهود... كل أشجار البرتقال النظيف التي اشتراها شجرة شجرة، كلها كانت ترتسم في وجهه... وترتسم لماعة في دموع لم يتمالكها أمام ضابط المخفر....

وعندما وصلنا صيدا، في العصر، صرنا لاجئين...

***

احتوتنا الطريق فيمن احتوت.. كان أبوك قد كَبُرَ عن ذي قبل، وبدا كأنه لم ينم منذ زمن طويل... كان واقفاً في الشارع أمام الأمتعة الملقاة على الطريق، وكنت أتخيل تماماً أنني إن سعيت إليه لأقول شيئاً ما فإنه سينفجر في وجهي: يلعن أبوك.. يلعن.. كانت هاتان الشتيمتان تلوحان على وجهه بوضوح، بل إنني أنا أيضاً، الطفل الذي نشأ في مدرسة دينية متعصبة، كنت ساعتذاك أشك في أن هذا الله يريد أن يُسعد البشر حقيقة.. وكنت أشك في أن هذا الله يسمع كل شيء...

ويرى كل شيء.. إن الصور الملونة التي كانت توزع علينا في كنيسة المدرسة، والتي كانت تمثل الرب يشفق على الأطفال ويبتسم في وجوههم، بدت هذه الصور كأنما هي الأخرى أكذوبة من أكاذيب الذين يفتحون مدارس محافظة كي يقبضوا أقساطاً أكثر... لم أعد أشك في أن الله الذي عرفناه في فلسطين قد خرج منها هو الآخر، وأنه لاجئ من حيث لا أدري، غير قادر على حل مشاكل نفسه، وأننا نحن، اللاجئين البشر،

القاعدين على الرصيف منتظرين قدراً جديداً يحمل حلاً ما.. مسؤولين عن إيجاد سقف نقضي الليل تحته: كان الألم قد بدأ يفتك بعقل الصغير الساذج..

إن الليل مخيف... والعتمة التي كانت تهبط شيئاً فشيئاً فوق رؤوسنا، كانت تلقي الرعب في قلبي.. مجرد أن أفكر في أني سأقضي الليل على الرصيف كان يستثير في نفسي شتى المخاوف... ولكنه خوف قاس جاف... لم يكن أحد على استعداد لأن يشفق علي.. لم أكن أستطيع أن أجد بشراً ألتجئ إليه... وأن نظرة والدك الصامتة تلقي رعباً جديداً في صدري...

والبرتقالة في يد أمك تبعث في رأسي النار... والجميع صامتون، يحدقون في الطريق الأسود، طامعين أن يبدو القدر من وراء المنعطف يوزع علينا حلولاً لمشاكلنا، ونمضي معه إلى سقف ما.. وأتى القدر فجأة.. كان عمك قد وصل البلدة قبلنا.. وكان هو قدرنا.

لم يكن عمك يؤمن كثيراً بالأخلاق، ولكنه عندما وجد نفسه على الرصيف، مثلنا، لم يعد يؤمن إطلاقاً... ويمم وجهه شطر بيت تسكنه عائلة يهودية، وفتح بابه، وألقى بأمتعته فيه، وأشار لهم بوجهه المكور قائلاً بلسان فصيح: اذهبوا إلى فلسطين... من المؤكد أنهم لم يذهبوا لفلسطين، ولكنهم خافوا من يأسه فذهبوا إلى الغرفة المجاورة وتركوه ينعم بالسقف والبلاط..

لقد قادنا عمك إلى غرفته تلك... وكدّسنا فيها مع أمتعته وأهله، وفي الليل نمنا على الأرض فامتلأت بأجسادنا الصغيرة، والتحقنا بمعاطف الرجال، وعندما نهضنا في الصباح، كان الرجال قد أمضوا ليلتهم جالسين على الكراسي... وكانت المأساة قد بدأت تجد طريقاً معبداً يقودها إلى خلايا أجسادنا كلنا!

لم نسكن في صيدا كثيراً.. فغرفة عمك لم تكن تتسع لنصفنا، ورغم ذلك فقد احتوتنا ثلاث ليال... ثم طلبت أمك من أبيك أن يبحث عن عمل ما، أو فلنرجع إلى البرتقال... ولكن أباك صاح في وجهها بصوت يرتجف بالنقمة.. فسكتت.. كانت مشاكلنا العائلية قد بدأت... والعائلة السعيدة المتماسكة خلفناها مع الأرض والسكن والشهداء...

لم أدر من أين أتى أبوك بالنقود.. إنني اعرف أنه قد باع الذهب الذي اشتراه لأمك يوم كان يريدها أن تسعد وأن تفخر بأنها زوجه.. ولكن ذلك الذهب لم يأت بالشيء الكثير القادر على حل مشاكلنا، فكان لا بد من مصدر آخر: هل استدان

شيئاً؟ هل باع شيئاً آخر أخرجه معه دون أن نراه؟ إنني لا أدري، ولكنني أذكر أننا قد انتقلنا إلى قرية في ضواحي صيدا... وهناك، قعد أبوك على الشرفة الصخرية العالية يبتسم لأول مرة... وينتظر يوم الخامس عشر من أيار كي يعود في أعقاب الجيوش الظافرة..

وأتى يوم "١٥ أيار" بعد انتظار مر... وفي الساعة الثانية عشرة تماماً، لكزني أبوك بقدمه وأنا مستغرق في نومي قائلاً بصوت يهدر بالأمل الباسل: قم.. فاشهد دخول الجيوش العربية إلى فلسطين.. وقمت كالمسعور.. وانحدرنا عبر التلال حفاة في منتصف الليل إلى الشارع الذي يبعد عن القرية كيلو متراً كاملاً.. كنا كلنا، صغاراً أو كباراً نلهث ونحن نركض كالمجانين.. وكانت أضواء السيارات تبدو من بعيد، صاعدة إلى رأس الناقورة، وحين وصلنا إلى الشارع أحسسنا بالبرد، ولكن صياح أبيك كان يملك علينا وجودنا.. لقد أخذ يركض وراء السيارات كطفل صغير.. إنه يهتف بها.. إنه يصيح بصوت أبح.. إنه يلهث.. لكنه ما زال يركض وراء رتل السيارات كطفل صغير... كنا نركض بجواره صائحين معه، وكان الجنود الطيبون ينظرون إلينا من تحت خوذهم بجمود وصمت... كنا نلهث، فيما كان أبوك يخرج من جيبه، وهو يركض بأعوامه الخمسين، لفافات التبغ يرميها للجنود، كان لا يزال يهتف بهم. وكنا نحن لا زلنا نركض إلى جواره كقطيع صغير من الماعز..

وانتهت السيارات فجأة.. وعدنا إلى الدار منهوكين نلهث بصفير خافت..

كان أبوك صامتاً لا يتكلم، وكنا نحن أيضاً لا نقوى على الكلام... وعندما أضاءت وجه أبيك سيارة عابرة.. كانت دموعه تملأ وجنتيه..

بعدها، مضت الأمور ببطء شديد.. لقد خدعتنا البلاغات ثم خدعتنا الحقيقة بكل مرارتها.. وأخذ الوجوم يعود إلى الوجوه من جديد.. وبدأ والدك يجد صعوبة هائلة في التحدث عن فلسطين وفي التكلم عن الماضي السعيد في بياراته وفي بيوته.. كنا نحن نشكل جدران المأساة الضخمة التي تملك حياته الجديدة، وكنا نحن أيضاً، أولئك الملاعين الذين يكتشفون بسهولة شديدة، أن الصعود إلى الجبل في الصباح بناء على أوامر والدك، معناه إلهاؤنا عن طلب الفطور....

وبدأت الأمور تتعقد.. كان أبسط شيء قادراً بشكل عجيب على استثارة والدك.. إنني أذكر تماماً يوم طالبه أحدهم بشيء لا أدريه ولا أذكره.. لقد انتفض.. ثم بدأ يرتجف كمن مسه تيار صاعق.. ودارت عيونه تلتمع في وجوهنا.. كانت فكرة

ملعونة قد أوجدت طريقها إلى رأسه، فانتفض واقفاً كمن وجد نهاية ترضيه... وفي غمرة من شعور الإنسان بقدرته على إنهاء مشاكله، ومن شعوره بالرعب قبل إقدامه على أمر خطير أخذ يهذي.. وأخذ يدور حول نفسه باحثاً عن شيء لا نراه...

ثم انقض على صندوق كان قد خرج معنا من عكا وأخذ ينثر ما فيه بحركات عصبية مخيفة... وفي لحظة واحدة، كانت أمك قد فهمت كل شيء.. وبدافع من ذلك الاضطراب الذي تقع فيه الأم عندما يتعرض أبناؤها للخطر.. أخذت تدفعنا إلى خارج الغرفة دفعاً وتطلب منا أن نهرب إلى الجبل.. ولكننا لم نبرح النافذة... وألصقنا آذاننا الصغيرة في خشبها نستمع برعب شديد إلى صوت أبيك: "أريد أن أقتلهم وأريد أن أقتل نفسي... أريد أن أنتهي.. أريد أن..."

وسكت أبوك.. وعندما عدنا ننظر إلى الغرفة من شقوق الباب، وجدناه ملقى على الأرض يلهثُ بصوت مسموع ويمضغ أسنانه وهو يبكي.. بينما قعدت أمك في ناحية تنظر إليه بجزع.. لم نفهم شيئاً كثيراً... ولكنني أذكر أنني عندما رأيت المسدس الأسود ملقى على الأرض بجانبه... فهمت كل شيء... وبدافع من ذلك الرعب القاتل الذي يصيب طفلاً شاهد غولاً على حين غرة.. أخذت أعدو في الجبل .. هارباً من الدار..

وعندما كنت أبتعد عن الدار كنت أبتعد عن طفولتي في الوقت ذاته، كنت أشعر أن حياتنا لم تعد شيئاً لذيذاً سهلاً علينا أن نعيشه بهدوء... إن الأمور قد وصلت إلى حد لم تعد تجدي في حله إلا رصاصة في رأس كل واحد منا.. يجب إذن أن نحرص في تصرفاتنا على أن نبدو بشكل لائق... يجب ألا نطلب الأكل ولو جعنا... يجب أن نسكت عندما يتكلم الأب عن مشاكله، ونهز رؤوسنا باسمين عندما يقول لنا "اصعدوا الجبل ولا تعودوا إلا في الظهر.."

في المساء.. عندما خيم الظلام عدت إلى الدار.. كان أبوك ما زال مريضاً، وأمك جالسة بجواره، وكانت عيونكم جميعاً تلتمع كأنها عيون القطط، وكانت شفاهكم ملتصقة كأنها لم تنفتح أبداً.. كأنها أثر لجرح قديم لم يلتئم كما يجب..

كنتم مكومين هناك، بعيدين عن طفولتكم كما كنتم بعيدين عن أرض البرتقال... البرتقال الذي قال لنا فلاحٌ كان يزرعه ثم خرج إنه يذبل إذا ما تغيرت اليد التي تتعهده بالماء..

كان أبوك ما زال مريضاً ملقىً في فراشه، وكانت أمك تمضغ دموع مأساة لم

تغادر عينيها حتى اليوم...

لقد دخلت الغرفة متسللاً كأنني المنبوذ.. وحينما لامست نظراتي وجه أبيك يرتجف بغضب ذبيح.. رأيت في الوقت ذاته المسدس الأسود على الطاولة الواطئة.. وإلى جواره برتقالة..

وكانت البرتقالة جافة يابسة..

الكويت - ١٩٥٨

قتيل في الموصل

حين كتبت هذه القصة أهديتها في ١٩٥٩ إلى صديقي م. الذي ذهب إلى الموصل ثم ضاعت أخباره، ولكني لم أنشرها حينذاك لأن قصة صديقي م. لم تكن قد انتهت بعد.. كنت أريد أن يصير بوسعي صياغة الإهداء بالشكل التالي"

"إلى صديقي م. وقبره يغتسل بالشمس الحقيقية..." فكان عليَّ أن أنتظر حتى ٨-٣-١٩٦٣م.

(غ)

* * *

قال فجأة..

- هل تعرف طالباً أردنياً يدرس في جامعة بغداد اسمه "معروف"؟

- قابلته مرة..

كان الموج قد بدأ يرتفع مع المد حاملاً في خط مستقيم أسراب الجراد التي سقطت في البحر حينما عجزت أجنحتها الشفافة عن حملها إلى الشاطئ، قال بهدوء:

- لقد قتل...

- كيف؟ معروف؟ كيف قتل؟

وصلت في تلك اللحظة موجة صاخبة ألقت أمامنا سرباً آخر من الجراد.. تناول منه جرادة صفراء، جسمها الطويل محفوف بأرجل منشارية، ورفعها أمام عيني نازعاً جناحيها الشفافين متمتماً بصوت فاجع:

- هكذا...

- ولكن أين قتل... أين؟

- في الموصل..

- ما الذي قاده إلى هناك؟..

* * *

معروف شاب قصير القامة، نحيل الجسم إلى حد مرضي، ولكنه رغم كل شيء يتمتع بروح فكهة تخفي في أعماقه قلقاً له جذور سوداء تمتد إلى اليوم الذي كان عمره فيه لا يتجاوز العشر سنوات، حينما وصل مع أمه إلى أول بئر ماء بعد أن طردا من بلدتهما الصغيرة، اللد.. كانت أمه عطشى وكانت حافة البئر مكتظة بمئات من الرجال والنساء الذين ينتظرون فرصهم لكي يشربوا ولكي يعيشوا... لقد زاحم الناس بإصرار رجل بائس... وحينما عاد إلى أمه بالماء الملوث بالتراب: كانت قد ماتت...

لقد مرت سنوات طويلة على اليوم ذاك، يوم وقف أمامها حاملاً في راحتيه الصغيرتين كوز ماء قذر.. كانت تتكئ على صخرة حمراء.. وجهها الشاحب يفضح أي صمت قابلت به عذاب موت رهيب.. كانت شفتاها سوداوين مجعدتين.. وكان لسانها كبيراً مدوراً يسد مجرى النفس.. لقد وقف لحظة دون أن يعي.. وحينما هزه أحدهم كي يسير مع القافلة عرف أن كوز الماء قد خطف من يده أثناء شروده..

لقد كان الطريق طويلاً منذ غادر البئر إلى أن وصل إلى باب الجامعة.. كان طريقاً طويلاً موحلاً.. ولكن هل سمع أحد في يوم ما أن "معروفاً" يريد شيئاً من هذه الحياة؟ يهمه أمر ما؟ يطمح لمستقبل محدد؟ يناضل من أجل هدف؟ يعيش لغاية؟ كلا.. إن أحداً لم يسمع.. لقد قال لي مرة فيما هو يقلب جريدة في يده.. "اسمع يا فيلسوفي الصغير.. الإنسان يعيش ستين سنة في الغالب، أليس كذلك؟ يقضي نصفها في النوم.. بقي ثلاثون سنة.. اطرح عشر سنوات ما بين مرض وسفر وأكل وفراغ.. بقي عشرون.. إن نصف هذه العشرين قد مضت مع طفولة حمقاء... ومدارس ابتدائية.. لقد بقيت عشر سنوات... عشر سنوات فقط، أليست جديرة بأن يعيشها الإنسان بطمأنينة؟"

بهذه الفلسفة كان يقابل أي تحد يواجهه.. كان يحل مشاكله بالتسامح.. وحين يعجز التسامح يحلها بالنكتة.. وحين تعجز النكتة يفلسفها..

سألته مرة محاولاً أن أجر رأسه لتأييد مشروع حزبي:

- ألست تريد الرجوع إلى فلسطين؟

قال وهو يضحك..

- حتماً أريد.. لسوف أوفر عليك سؤالك التالي.. أتعرف قصة هانيبال؟ حينما عبر جبال الألب سار وجنوده خلف الأفيال.. حسناً.. أنا لست فيلاً... أنتم الفيلة... حينما تعبرون الحدود إلى فلسطين سوف أكون خلفكم.. أنا صرصور صغير سأحتمي بأظلال فيلة هانيبال...

أتصدق مثل هذا الإنسان.. الذي عاش على مثل هذه الترهات اللطيفة الساذجة، والذي قاوم كل أنواع الجذب، كل أنواع التحدي.. أتصدق أن هذا الإنسان تغير دفعة واحدة؟. كيف تغير؟؟ لا أحد يدري!.. لقد أصبح وجهه مربداً كما لو أنه مازال يحمل كوز الماء أمام جسد أمه المد بصمت فاجع.. بل إنه كان يجد لذة وراحة حينما يأخذ في الحديث عن تلك اللحظة.. لقد قال لي يوماً إذ كنا عائدين إلى الدار في منتصف الليل:

- أتعرف شيئاً؟.. إن حياة بعض الناس كالشريط السينمائي العتيق الذي تقطع، فوصله فنان فاشل من جديد بصورة خاطئة.. لقد وضع النهاية في الوسط ووضع الوسط في النهاية...

كنت أعرف أنه يتحدث عن نفسه، ولم أحاول أن أنظر إلى وجهه كي أتأكد من ان عينيه تدمعان ولكنني رغبت في أن أواصل التحدي منتهزاً ضعفه في تلك اللحظة.. فقلت:

- أتريد أن أناديك حينما تبدأ أفيال هانيبال بعبور حدود فلسطين؟...

ارتجف قليلاً.. ولكنه حافظ على هدوء غريب، وسمعت صوته يهمس باستسلام:

- على بعض الرجال أن يقودوا الأفيال...

لماذا تغير معروف؟ لا أحد يدري... سألته مرة عن هذا الموضوع فقال وهو يشير براحتيه المبسوطتين كي يؤكد جوابه.. "لا شيء... لقد كانت الكذبة فوق والحقيقة تحت... فانقلب كل شيء... أصبحت الحقيقة فوق والكذبة تحت..."

- ولكن ما الذي أحدث هذا القلب؟..

بسط راحتيه إلى الأمام وقلب شفته السلفى ثم صمت.

ارتفع المد أكثر من ذي قبل حتى غطى الماء أقدامنا الممددة على الرمل، فابتعدنا قليلاً كي نستريح على صخرة مرتفعة.. كان صوت ارتطام الموج بالصخرة يعطي لحناً جنائزياً للشمس الوردية التي أخذت تهبط ببطء، خلال غيوم قرمزية نحو

الماء.

صمت صديقي من جديد كأنما ليحشد صدره بشجاعة جديدة، ثم سأل فجأة:

- ولكن أين قابلت معروف؟

- لقد تعرفت إليه في السيارة التي عبرت بنا الطريق ما بين دمشق وبغداد.

- أنت تعرف بغداد إذن؟

- آه نعم.. لقد مكثت فيها أكثر من شهر..

- قبل الثورة أم بعدها؟

- بعدها بأيام قليلة...

- هل تعرفت إلى معروف جيداً في السيارة؟

***

سيارات الدرجة الأولى لشركة (...) ليست جيدة على الإطلاق، فالمكيف الذي يميزها عن سيارات الدرجة الثالثة كان معطلاً... أما الماء فقد كان بارداً حقاً... بارداً إلى درجة لم نستطع معها أن نشربه، فجهاز التبريد كان يعمل على مزاجه ولم تكن هناك وسيلة لإيقافه عند درجة معينة.. لم تكن السيارة مكتظة بالركاب... وحينما صعدت سلمها القصير لاحظت لتوي أن رفاق السفر لن يكون بوسعهم ان يقصروا الطريق على الإطلاق.. في المقعد الأول جلس شيخ وقور صامتاً كتمثال..

وخلفه مباشرة جلس كهل بشرخ في وجهه ونظارة سميكة، وإلى جانبه ابنته، أو أخته، كانت سمينة وقد لبست فستاناً غريباً يتوسط صدره هرم مقلوب من قماش سميك مما جعل نهديها يندفعان إلى الجانبين بصورة غير لائقة...

أما بقية الركاب فقد كانوا من العجائز... لقد جلست في مقعدي صامتاً.. الطريق طويل.. والمزعج فيه أن أحداً لا يتكلم، ويخفف بكلامه شيئاً من حر بادية الشام..

وصلت السيارة إلى "التنف" في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وقبل أن تقف انفجر عجلها الأمامي وقال لنا السائق إننا سوف نضطر للانتظار ساعة كاملة من أجل إصلاحه ثم أشار إلي أن أهبط كي أساعده.. الهواء على الأرض كان بارداً لاذعاً، وحينما حملت المطرقة لاحظت إلى جانبي شاباً قصير القامة نحيل الجسم هبط من السيارة ورائي.

قرعنا العجل سوية بالمطارق حتى تعبنا فجلسنا فوقه لنستريح قليلاً ولم أجد

بدلاً من أن أسأل صاحبي القصير النحيل.

- هل كنت راكباً في هذه السيارة؟

- نعم.

- غريب أنني لم أرك؟

- كنت غارقاً في مقعدي.

قلت بعد صمت قصير:

- أين تريد الذهاب؟

- إنني طالب في كلية الحقوق في بغداد.. وسوف تبدأ الدراسة بعد أسبوع

- أنت سعيد بالثورة، أليس كذلك؟

- سعيد جداً... إنها خطوة جيدة نحو "اللد"

وحينما عادت السيارة تنهب الطريق الصحراوي، كنت جالساً إلى جوار معروف، وبعد لحظات أشار بعينيه إلى الكهل الذي كان منهمكاً بقراءة جريدته مع ابنته أو أخته ثم مال على أذني وهمس:

- أتعرف ممن هؤلاء؟ من الشرفاء التقدميين! إنني أخاف على الثورة منهم...

غرقنا بعد ذلك في الصمت.. ولكن السيارة سرعان ما توقفت حينما انفجر عجل جديد، وفتح السائق العملاق باب السيارة وطلب منا أن نهبط كي نصلح العجل مرة أخرى..

وقبل أن نصل، رأينا الكهل يقترب من المطرقة الثقيلة، ويرفعها بين كفيه ولكنه يعجز عن إيصالها إلى ما فوق رأسه فيلقيها وهو يلهث.

قال معروف منفجراً بالضحك:

- أيها التقدمي المسكين، إن تجربتك العمالية الصغيرة قد فشلت، وهكذا فلن تستطيع أن تكون تقدمياً كاملاً... ماذا؟ أنت لا تستطيع أن ترفع المطرقة! كيف يمكن لك أن تدرك التناقض إذن؟

نظر الكهل إلينا بقسوة، ثم عاد أدراجه مسرعاً إلى السيارة... وكررت الفتاة نفس المشهد ثم أخذت تحجل عائدة خلف كهلها وثدياها يهتزان على جنبي صدرها.

وصلنا بغداد في فجر يوم حار... وأسرعنا لتونا إلى الفندق... وفي نفس تلك الليلة قال لي معروف:

- لسوف يحدث شيء خطير.. ألاحظت؟ إنهم يحشدون أنفسهم كالديدان،

ينحشرون في الفنادق كما لو أنهم تداعوا لحشر أرضي، خرجوا من كل ثقوبهم وجاؤوا إلى بغداد .. لماذا ؟ أيمكن أن تكون مؤامرة ؟

* * *

سقطت الشمس في نهاية الأفق، وبقي منها لون أحمر يخضب الغيوم الواطئة.. بعض الجراد استطاع أن يقطع المسافة وهوى على الشاطئ منهكاً يزحف بأرجله المنشارية نحو الرصيف تناول صديقي جرادة جديدة قصف أجنحتها الشفافة وألقاها في الماء.. تحركت قليلاً ثم طواها الزبد وسمعت صوته:

- قتلوه هكذا.. تماماً هكذا...

- ولكن ما الذي قاده للموصل؟ أنا أعرف أنه يعيش في بغداد..

- أتريد أن أقول لك نفس كلامه؟ قال إنه يريد أن يخطو نحو اللد، إن الزيف الذي غرقت فيه بغداد قد قطع في صدره كل أمل بأن يعود وهو يعرف أن الموصل ليست مزيفة على الإطلاق... وهكذا فإنه انتهز عطلته كي يطير إلى هناك؟

- حسناً.. ماذا حدث هناك؟

- ثورة...

* * *

بغداد! كل شيء أصبح غير ذي معنى... الديدان خرجت من بطن الأرض... وأصبح يشعر بأن الأيدي الكثيرة بدأت تجره بعيداً عن طريق العودة... الحياة هناك تقوم على خطأ... ما هو هذا الخطأ؟.. إنه يحسه إحساساً صلباً ويحاول أن يقتلعه من شروشه..

- ولماذا كل هذا التعب؟ اتركهم... إنهم الأسياد الآن.. ولكن ذلك كان مستحيلاً.. كان من العسير رده:

- إنها ثورة الزنج من جديد.. العبيد يحملون سوادهم في قلوبهم هذه المرة..

- يا معروف.

- ماذا تفعلون هنا ؟ لقد تعودتم أن تعيشوا بلا هواء كالخفافيش... يجب أن نفعل شيئاً.

- ماذا نفعل ؟

فرضت المعركة علينا فرضاً.. كان في الموصل حينما حدثت الشرارة... واضطر أن يقدم نفسه للحريق...

* * *

الموصل، رفضت الدود الذي زحف إليها من بطن الأرض.. كل شيء في المدينة الصغيرة كان راضياً عن نفسه قبل أن يصل زحف الديدان... كان يقف على شرفة دار صديق حين رآهم يقبلون بوجوه ممسوحة بحقد ما تحت الأرض... كالدود الذي يتقنع باللون الأخضر كي يمتص الحياة رويداً رويداً...

كان يقف على الشرفة، وكانوا يمرون من تحته بعربدة لحظة خرجت من حدود العقل... قال لصديقه ساعتها:

- لقد وصلوا إلى هنا وعلينا أن نقف في طريقهم.. أرأيت الصراصير كيف تتحكم بمصير "أخيل"؟ إنها تلدغه في كعب قدمه.. وهو لا يموت إلا من هناك... إن الصراصير وحدها قادرة على قتل "أخيل" يا للسخافة!.

وفي الصباح هبط الجيش إلى الشارع... كان كل شيء يحتم هذه اللحظة... وهربت الصراصير من جديد... وفي ذلك اليوم كان معروف في الشارع... وقال لصديقه:

- مزيداً من الهواء... مزيداً من الهواء، لقد عادني إيمان طاغ بأنني سوف أعود إلى بلدتي الصغيرة.. ما زال "أخيل" قادراً على التنفس... وكل شيء حسن طالما أنه لم يمت بعد.. وكانت تنير الشارع شمس حقيقية هذه المرة.. وكان معروف يتنفس بملء رئتيه، ومن الهواء الذي يحبه.. وكان كل شيء يبدو حقيقياً من جديد، لقد اختفت الصراصير، أما أولئك الذين صفقوا لها طويلاً فلقد التزموا الصمت بانتظار النتيجة...

وفي الليلة التالية حدثت الفاجعة... وقال معروف لصديقه وعيونه تدمع:

- مات أخيل... وعادت الصراصير...

- وماذا بودك أن تصنع؟

- سوف أبقى هنا.

- إلى متى؟

- إلى الأبد... أيبدو لك الأبد بعيداً؟

لقد رفض معروف أن يهرب.. وأصر على أن يبقى هناك حتى تمتص الصراصير آخر خفقة ريح في المدينة... ولقد دأب منذ تلك الليلة على المسير في الشارع الرئيسي ذهاباً وإياباً وكفاه معقودتان خلف ظهره... وكانت شفته السفلى ترتجف...

وفي ظهر ذلك اليوم وقف صديقه على الشرفة... ورآه في رأس الشارع غارزاً رأسه بين كتفيه، عاقداً كفيه خلف ظهره يتحدث مع مسلحين.. كان هادئاً، وكان يجيب على الأسئلة بلا مبالاة واضحة، ثم عاد إلى مسيره الهادئ وكان يبدو أنه لم يجب على آخر سؤال طرحاه، بل قاطعهما وعاد يكمل طريقه..

سار قليلاً قبل ان يصوب الرشاش إلى ظهره، ثم تدوي الطلقات المتتابعة ويسقط معروف على ركبتيه ورأسه بين كفيه، ثم تعجز ركبتاه فيهوي على وجهه..

كان يبدو في وضعه ذاك كأنه حفار حيل بينه وبين أن ينقب أعماق الأرض، فانحنى يشمها.. كأنه طير قصت أجنحته فسقط.. كأنه جرادة منهكة بعد رحلة قاسية سقطت ميتة على شاطئ جاف يابس.

وفي مساء ذلك اليوم كان جسد "معروف" ما زال ملقى في وسط الطريق بنفس تلك الصورة.. وحينما غربت الشمس حملته سيارة مع أجساد أخرى واتجهت خارج المدينة...

ولقد تيسر لصديقه بعد يومين أن يرى ساعته وقلمه مع موظف قال إنه اشتراهما ، أما جسد معروف فلقد دفن في حفرة واحدة مع أجساد كثيرة اضطجعت كما قال الحفار كتفاً إلى كتف.

ولفت نظر الحفار جسد هزيل قصير لشاب قتلته بضع رصاصات في ظهره، كان الجسد يرفض أن يستوي مع بقية الأجساد ، كان منحنياً، مرتاحاً على ركبتيه وجبهته، ولقد اضطر أخيراً لدفنه على تلك الشاكلة، كأنه يصلي...

* * *

بدأت الظلمة تهبط بصورة أقتم... وكان صوت الموج قد علا حتى أصبح يطوي كل صوت آخر، وأضاءت السفن البعيدة أنوارها فبدت في نهاية الأفق قناديل مأتم تحملها ملائكة متشحة بالسواد..

وصلت في تلك اللحظة جرادة حطت على الصخرة أمامنا... ومد صاحبي كفه كي يلتقطها، ولكنها طارت باندفاع مفاجئ متجهة بإصرار فتي نحو المزارع الخضراء الممتدة خلف الرصيف...

الكويت -١٩٥٩

لا شيء

" نقلت الأنباء أن جندياً على الحدود صب فجأة رصاص رشاشه على الأرض المحتلة فاقتيد إلى مستشفى الأمراض العصبية!."

* * *

كانت تلك هي المرة الأولى التي سمع فيها هذا الاصطلاح:

"انهيار عصبي"! وسأل الممرض فيما كان يقتاده إلى الخارج:

- ماذا يعني انهيار عصبي ؟.

أجاب الممرض بجفاء:

- يعني ؟ أنك لست على ما يرام!.

رفع يده ودق بأصبعه على جانب رأسه وسأل:

- هنا

- نعم، هنا!

- وقف هنيهة، لم يكن متأكداً من أي شيء، ثم عاد فسأل مرة أخرى لمجرد أنه لا يعرف ماذا يتعين عليه أن يقول:

- انهيار عصبي.. هنا ؟

- نعم..

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني أنك لست على ما يرام..

- كيف؟.

- جذبه الممرض من ذراعه بعنف فأحس بأنه إنما كان يقول كلاماً فارغاً وأنه لم يكن ليستطع التحكم بلسانه، كان ثمة عنكبوت أسود كبير قد تمركز في جبينه من الداخل وأخذ يبني شباكه الدقيقة القاسية بين عينيه.

- إلى أين ستأخذني الآن؟.

- عليك أن تقابل الرئيس..

حاول أن يقف إلا أن الممرض دفعه بعنف، فأكمل مسيره..

- قل لي، هذه المقابلة مع الرئيس، هل تتعلق بحكاية الأعصاب هنا ؟.

أشار إلى جانب رأسه مرة أخرى، ومضى العنكبوت يشد خيوط شباكه..

- أغلب الظن أن نعم..

- نعم ماذا ؟.

- أوف!.

مرة أخرى أحس بأنه، فعلاً، ليس على ما يرام.. ولكنه كان يرغب في إطلاق سراح لسانه إلى أبعد مدى مستطاع:

- هل تعرف شيئاً ؟.

- ماذا ؟.

ثبت قدميه في الأرض وهز إصبعه بوجه الممرض المرافق، ولما حاول الأخير أن يدفعه شنج ساقيه وامتنع..

- أريد أن أقول لك شيئاً..

- ماذا ؟.

- صحيح أنه انهيار عصبي.. ولكنه ليس هنا..

- أين إذن؟.

أشار إلى صدره وقال بهدوء:

- هنا..

- الانهيار العصبي لا يحدث هناك قط..

- من قال ذلك؟.

- الأطباء..

- إنهم مجانين..
مشى قليلاً، ثم وقف وهز إصبعه بوجه الممرض مرة أخرى..
- الأطباء مجانين.. ثم إن هذه الحالة ليست حالة طبية، إنها حالة عسكرية..
- لماذا هذه الحالة حالة عسكرية؟.
- لأنني أنا نفسي عسكري!
- وما الفرق؟
- ماذا تعني؟
عاد الممرض، فجذبه بعنف وسار به في الممر النظيف الصامت.. كانت الأبواب مغلقة على طول الجانبين، وكان العنكبوت قد بدأ يغني وهو يكمل نصب شباكه القاسية بين عينيه..
- أهو بعيد من هنا؟
- من؟
- الرئيس..
- في آخر الممر..
كان يزعجه أن ينتهي الحديث بتلك السرعة، وكان يحس بأن عليه أن يتكلم كثيراً، لقد كانت رغبة جارفة تتمسك بصدغيه وتهزه بلا هوادة.. وكان الممرض المرافق يصر على سحبه بعنف، وكانت محاولات التوقف تذهب هباء..
- اسمع، لقد أتعبتني.. لنقف قليلاً ونستريح.. ثم إنني كما قال الطبيب- رجل مريض..
وقف الممرض، وقاسه بعينيه ملياً، ثم هز رأسه وأطبق شفتيه بإحكام، بينما اتكأ على الحائط ومضى يتابع خطوات العنكبوت البطيئة وهو يتنقل في جبينه متماً بناء عشه..
- كيف عرف أنني مصاب بـ.. بـ.. بذلك الشيء المتعلق بالأعصاب هنا؟
- الانهيار العصبي؟
- نعم.. الانهيار العصبي.. كيف عرف؟
- لقد سألك أسئلة خاصة.. وهم يعرفون المرض من الأجوبة...

- ولكنه لم يسألني كثيراً، سألني مرتين أو ثلاث مرات ثم انكب على دفتره يكتب.. قال لي: ماذا شعرت قبل أن تطلق الرصاص؟ فقلت له لم أشعر بأيما شيء.. ثم قال: ماذا شعرت بعد أن أطلقت الرصاص؟ فقلت له: لم أشعر بأيما شيء.

- فقط؟

- أوه كلا! لقد أصيب بخيبة أمل كبيرة حينما قلت له لا شيء!. وكان يريد أن يكتب وكنت أريد ان أساعده حقاً فقلت له..

- ماذا قلت؟

- قلت له أنني بعد أن أطلقت الرصاص شعرت بشيء واحد فقط، هو أن مشط الفشك سريع الانتهاء..

- أشعرت بذلك حقاً؟

هز رأسه بأسى، وكان العنكبوت قد أتم نسج بيته كله، ثم وقف في الوسط رافعاً أذرعه المتعددة باحثاً عن ذبابة..

- أوه.. نعم! أنت لا تتصور كم كان ذلك مذهلاً! ضغطة واحدة على الزناد وينتهي الأمر.. إنهم لا يحملوننا سوى مشط واحد..

- هيا بنا..

شده من ذراعه فمشى معه وقد أحس بالألفة لأول مرة، منذ ذلك الوقت الذي تلقى فيه ضربة قاسية على مؤخرة عنقه، ثم نقلته سيارة الجيش إلى المستشفى.. وفي غمرة ذلك الشعور المريح لاحظ بأنهم خلعوا عنه بذلته العسكرية وألبسوه لباساً غريباً.. ولكنه لم يشأ أن يحزر متى حدث ذلك..

- لقد قتلت اثنين..

- من؟

- أنت، حينما أطلقت رصاصك قتلت اثنين منهم..

- وأين المفاجأة؟ حينما يطلق المرء رصاصاً فإنه يطلقه على شيء ما..

- كنت تتعمد ذلك؟

- أوف!. ماذا تحسب إذن؟

- كنت أحسب أنه انهيار عصبي!..

- وما الفرق؟

- الفرق أن المصاب بانهيار عصبي لا يتعمد ذلك؟.

وقف فجأة فتقطعت خيوط بيت العنكبوت واهتز في مكمنه إلا أنه ما لبث أن انطلق بعناد لإصلاح ما انفتق من الشباك

- إنهم يحسبون إذن أنني لم أتعمد ذلك؟

- أجل!

- كلا! لقد تعمدته!

- لو قلت ذلك أمامهم لسجنوك، الأفضل أن تمسك لسانك..

صار العنكبوت يعمل بصخب وجنون وأخذ يحدث ضجة في جبينه، خيل إليه أنه على وشك أن يقع، ودار الممر الطويل دورة كبيرة حول نفسه ثم عاد إلى ما كان عليه..

- لماذا يريدون أن أقول إنني لم أتعمده؟.

- لأنه عمل غير صائب..

ثبت قدميه في الأرض فعاد الممرض لسحبه إلا أنه نفض ذراعه بعنف وتقطعت خيوط أكثر في بيت العنكبوت..

- أتريد أن أقول لك شيئاً؟

- كلا! أريد أن تمشي معي، لقد ضيعنا نهارنا..

- لن أمشي قبل أن أقول لك شيئاً..

- حسناً، قل..

- أنا مصاب بهذا الشيء المتعلق بالأعصاب لأنني تعمدت أن أطلق الرصاص.. أليس كذلك؟.

- أجل..

تقطعت المزيد من الخيوط في بيت العنكبوت وضجت الحشرة السوداء بجنون وهي تحاول رتق الفتق.. وأكمل:

- وهم ليسوا مصابين بذلك الشيء الخطير المتعلق بالأعصاب لأنهم يتعمدون أن لا يطلقوا الرصاص.. أليس كذلك؟..

- أجل، ماذا تريد أن تقول؟..

- ماذا أريد أن أقول؟ أوف! لا شيء.. لا شيء..

سار بهدوء، وكان يدق أرض المشى بقدميه الكبيرتين فيهتز جسده الضخم، وكان العنكبوت يرتج في جبينه، والخيوط تتقطع بعنف.. ثم يهتف..

- اسمع، هل أنت متأكد أن هذا هو الصحيح؟.

- ماذا؟.

- هذا الذي قلته قبل قليل عن موضوع الأعصاب؟

- طبعاً.. طبعاً..

نظر إلى الممرض بإمعان.. كان العنكبوت قد بدأ يتلاشى، وامحت، فجأة، كل آثار خيوطه المتشابكة وصار جبينه من الداخل نقياً كبلاطة رخام أبيض..

- حسناً.. دعنا نذهب إلى الرئيس!..

بيروت -١٩٦٢

الفهرس

مطابع الأهرام ٦ أكتوبر ـ التجارية ـ مصر

الكتاب للجميع
سلسلة كتب شهرية توزع مجانا
مع الصحف التالية
القاهرة (مصر) / السفير (لبنان) / الأيام (البحرين)
القبس (الكويت) / البيان (الإمارات) / المدى (العراق)
الثور (سوريا) / الإتحاد (العراق) / الحياة (السعودية)

تصور هذه المجموعة من القصص القصيرة، ملامح من الشخصية الفلسطينية فى تجلياتها المختلفة، داخل الوطن السليب، أو فى الشتات، الذى اضطر الفلسطينيون للرحيل إليه، بعد أن استولت العصابات الصهيونية على وطنهم، وأقامت على أرضهم دولة، جلبت إليها الصهاينة من كل أرجاء الأرض.

وتعد قصة «أرض البرتقال الحزين»، العمود الفقرى لهذه المجموعة، إذ تؤرخ لمعاناة فلسطينيي الشتات، على نحو يتقاطع مع سيرة كاتبها غسان كنفانى (١٩٣٦/١٩٧٢)، وهو كاتب صحفى وروائى وقاص فلسطينى، ولد فى «عكا» عام ١٩٣٦، وكان فى الثانية عشرة حين أجبرت أسرته على النزوح من فلسطين، ليعيش فى سوريا حيث أكمل دراسته الثانوية، وانتقل إلى لبنان، ومنها إلى الكويت، حيث انضم إلى حركة القوميين العرب، وعاد إلى لبنان ليعمل بالصحافة محررا، ورئيسا لتحرير فى صحف متعددة، منها «الحرية» و«المحرر» و«الأنوار» و«الهدف»... وتعددت مجموعاته القصصية ورواياته، التى تحولت إحداها وهى «رجال فى الشمس» إلى فيلم سينمائى أخرجه «توفيق صالح».. واغتاله الموساد الإسرائيلى بتفجير سيارته فى ٨ يوليو ١٩٧٢.

